هيفاء البشير.. سيدة بحجم وطن

هيفاء البشير.. سيدة بحجم وطن

المؤلف: ميسون العرموطي .. (وآخرون)

تقديم: سحر ملص

الطبعة الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة

مؤسسة عبدالحميد شومان

هاتف: (4633372 - 00962 / 4633627 – 00962)

فاكس: (4633565 - 00962)

صندوق بريد: 940255 عمّان، 11194 الأردن

بريد إلكتروني: AHSF@shoman.org.jo

www.shoman.org

shomanfdn

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublishers.com

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مُصنفه ولا يعبّر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية الأردنية: (2021/10/5748)

ردمك: ISBN 978-9957-19-079-8

هيفاء البشير.. سيدة بحجم وطن

هيفاء البشير.. سيدة بحجم وطن

2020 /10 /25

ميسون العرموطي	فاديا سمارة
ماري نفّاع	أروى النجداوي
أمل مدانات	أسمى خضر
إيلي النمري	هيفاء النجار
غانية ملحيس	أمان السائح
سالم ساري	جمان مجلي
عامر البشير	آمنة الزعبي
سارة بركات	جريس سماوي
إبراهيم السواعير	عبداللّه الخطيب
سحر ملص	راشد عيسى
أسعد خليفة	بلال التل
ليث عودة	محمد السواعير

تقديم: سحر ملص

تقديم

سحر ملص [1]

المرة الأولى التي قابلت فيها السيدة هيفاء البشير، كانت في العام 1997، حين وقفنا معًا أمام جلالة الملكة نور لاستلام جائزه أدبية في أدب الطفل، وقد فازت كل واحدة منا في حقلها الخاص في هذا المجال.

لا أخفي أنني يومها شعرت بالدهشة، إذ إن المعروف عنها أنها سيدة ناشطة في مجال العمل الخيري التطوعي ورعاية كبار السن، لكن وجودها في هذا الحفل يعني الشيء الكثير.

في العام 2010 قابلتها مرة ثانية في مناسبة أخرى، فقامت بإهدائي نسخة من كتابها «محطات لرحلتي مع الحياة»، وما إن قرأت سيرتها حتى شعرت بالفخر والاعتزاز بوجود سيدة مثلها على هذا القدر من الحكمة والعطاء، وقد تخطت كل الصعاب بشجاعة نادرة، وتسلقت صخور القدر الحادة لتصل إلى القمة، راسمة دربًا مشرفًا لتكون قدوة للنساء.

بعد سنوات كان لي شرف العمل معها في منتدى الرواد الكبار، وأعترف بأن الدخول إلى محيط عالمها والإحاطة بدقائق شخصيتها، لم يكن بالأمر السهل أو البسيط، فثمة هالة من الجدّ والوقار تحيط بها، فهي مقلّة في الكلام، وتترك أعمالها تنبئ عنها، ومع ذلك عندما تتحدث في ندوة أو خطاب، فهي أشبه بخطيب مفوّه، فتلم بجوانب الموضوع كلها وتلفت الانتباه.

(1) المستشارة الثقافية في منتدى الرواد الكبار.

مؤسسة عبد الحميد شومان أحسنت صنعًا في اختيار هذه الشخصية لاستضافتها في برنامج ضيف العام (2020)، لتكون أول امرأة يتم استضافتها وتكريمها في هذا البرنامج، وقد أجمع المشاركون الذين سلّطوا الضوء على جوانب حياتها المختلفة على أنها امرأة فريدة ومميزة في عطائها وتفكيرها ونظرتها للحياة.

جذور شخصيتها المميزة تبدو ضاربة في العمق منذ بواكير طفولتها، فقد توفي والدها وهي ما تزال في الرابعة من عمرها، وبعدها بسنوات قليلة فقدت أخاها. وبالرغم من أن أمها وإخوتها قد أحاطوها بالرعاية والحنان، إلا أنها عاشت حياة جديّة، تبدو ملامحها في ذلك التعلق بالمدرسة وقطع المسافات سيراً على الأقدام لتلقّي العلم والانفتاح على الحياة بعيدا عن حضن الأم، ودفء البيت.

عندما أنهت الصف الثالث الإعدادي اختيرت بسبب تفوقها للالتحاق بدار معلمات القدس في مدينة أخرى، لتتابع دراستها بجدية. نكبة فلسطين في العام 1948 جاءت صاعقة على الجميع، وقد أدت إلى إغلاق دار المعلمات، لتعود البشير إلى بيتها، وتلتحق بعدها بمدة بالمدرسة العائشية من أجل أن تتابع مع المدرسين هناك ما فاتها من المواد، فتتقدم لفحص المترك وتجتازه بامتياز، ثم بعد ذلك تتابع حياتها ما بين كنف أسرة وحياة زوجية إلى امرأة فاعلة في مجتمعها.

والمتتبع لمسيرة حياتها تستوقفه ملاحظات ومحطات كثيرة:

أولًا: أن الحياة تبتسم لها أحيانًا، وتدخلها في دائرة الفرح، وعندما تطمئن إليها تقوم بتوجيه ضربة لها، ومع ذلك تتخطى حزنها وجراحها وتتابع دراستها، فقد تتالت أحداث الفقد في حياتها من اليتم وهي في الرابعة، إلى فقد الأخ، ثم فقد الزوج، واخيرًا فقد الأبن، مع ذلك ظلت سنديانة راسخة، صحيح أنها مجروحة تذرف دمعها بصمت، لكنها حاملة راية الإنسانية والعطاء.

ثانيا: يلاحظ وعيها المبكر منذ الطفولة، ونظرتها الإنسانية، فقد كانت منذ نعومة أظفارها تجمع التبرعات المدرسية لدفعها كرسوم للفتيات غير المقتدرات، من أجل أن يتابعن الدراسة، إضافة إلى أن الإبداع متّاصل فيها، فقد كانت تقوم بتحويل النصوص الأدبية الجادة إلى مسرحيات تعرضها أمام الطالبات ليزددن وعيا. وحين أصبحت شابة، راحت تكتب في الصحف تحت اسم مستعار «فتاة عيبال».

ثالثاّ: مقدرتها على التأقلم في أي بيئة وُجدت فيها، فحين ارتحلت عن بيتها في نابلس بعدما اقترنت بزوجها الراحل الدكتور محمد البشير وسكنت معه في مدينة السلط، لم تكن مجرد زوجة عادية، بل قررت العمل تطوعا بالتدريس في إحدى المدارس، ثم عملت في تعليم اللغة الإنجليزية، ليصدر قرار بنقلها إلى الكرك، وهنا آثرت أن تظل مع زوجها وأولادها لرعايتهم، إذ إن الأسرة مقدسة في حياتها بالرغم من كل طموحاتها.

رابعاّ: تمثلت حياتها بشق الطرق وتمهيدها للآخرين، وبرؤيا مستقبلية ثاقبة، فحين قامت وزميلاتها في جمعية الأسرة البيضاء بزيارة إلى مدارس الفتيات في مدن وقرى المملكة مشجعة الطالبات على الالتحاق بمهنة التمريض، كانت تلك خطوة رائدة في كسر حواجز الخوف من انخراط الفتيات بالتعليم والعمل في هذا المجال.

وأتبعت ذلك، بدراستها لاحقًا في الجامعة الاردنية في هذا المجال، لتكون قدوة لغيرها بالرغم من محنتها، واستشهاد زوجها، ورعايتها لأولادها الستة آنذاك.

ولا ننسى، كذلك، خطوتها الخيرة الجريئة حين قررت تشييد دار الضيافة للمسنين، وهي الخطوة التي كانت ضرورية في مجتمعنا ليعيش المسن بكرامة في حال توحده أو فقده لمن يعيله في كبر سنه.

خامسًا: يلاحظ أن ما أنجزته في حياتها، كان غير نابع من مصلحة شخصية، وإنما هو نوع من العمل التطوعي الذي يصب في خدمة ورعاية المجتمع، منبثقًا من نظرة ثاقبة.

والجدير بالذكر أن ما قامت به تمثل بإنشاء مؤسسات مستدامة عملت على دعمها واستمرارها، فعلى سبيل المثال كانت أول من نادى بإنشاء صندوق دعم كبار السن.

وارتبطت حياتها بهموم مجتمعها المحلي، وتوسعت في علاقاتها بالمجتمعات العربية من خلال دورها كنائبة لرئيسة الاتحاد النسائي العربي العام في العراق. وقد كان دورها كامرأة مساندا دائمًا في قضايا المرأة، ويتضح ذلك من خلال ترؤسها الاتحاد الأردني كأول رئيسة له، وكذلك عضويتها في المجلس الوطني الاستشاري الأردني ومجلس أمانة عمان في ما بعد، فكانت على اتصال دائم بقضايا المجتمع وهموم المواطن.

سادساَ: لم تكن يومًا خطواتها عشوائية، بل كانت مبنية على دراسات مسبقة تقوم بتنفيذها مستندة إلى أسس علمية، فقبل تأسيس دار الضيافة للمسنين قامت بزيارة إلى بريطانيا للاطلاع على دور الإيواء، وعادت تحمل أفكارا كثيرة في هذا المجال.

سابعاَ: لم تقتصر رسالتها في الحياة على رعاية كبار السن فقط، بل إنها انطلقت من نظرة إنسانية واسعة، فعندما التحقت بجمعية التأهيل النفسي عملت بجدية كبيرة، وحين تقرر تجميد أعمال الجمعية تبرعت هي لتقوم بحمل مسؤوليتها وترؤسها، ليأتي عملها الدؤوب المثمر على شكل تأسيس وإنشاء مركز الصفصاف لرعاية وتأهيل المرضى النفسيين، وهو من المراكز الريادية في هذا المجال. لقد كانت تنظر إلى هذه الفئة من الناس على أنهم جزء من المجتمع علينا رعايتهم وإعادة تأهيلهم لدمجهم من جديد في المجتمع. وأيضاّ قامت بزيارة إلى الدنمارك للاطلاع على عمل المؤسسات المشابهة وعادت بأفكار كثيرة.

أما حين التحقت بالائتلاف الصحي الذي يهدف إلى الدفاع عن حقوق المرضى وتوصيل احتياجاتهم ومطالبهم لصناع القرار، فعملت بروح الفريق الواحد، وقد أطلق الائتلاف الميثاق الوطني لحقوق المريض.

ثامنًا: لقد حملت رسالة الإنسانية حيثما وجدت، فهي امرأة آمنت أن العيش من أجل الآخرين هو الحياة الحقيقية الخالدة، ولم تثنها سنوات العمر عن عزيمتها، وهي التي قالت

يومًا عن ذاتها «إن انقضاء السنين لا يفقد القلب أن يظل غضاّ طرياّ نابضًا ومخزنًا مليئًا بالمحبة». إنها لا تمل العطاء، فهي تحاور الأطفال وتكتب لهم وتمسح دمعة من على خد موجوع، وتربت بحنان على يد مسن، وقد قامت بتأسيس منتدى الرواد الكبار الذي هو واحة فكر وثقافة وتسلية وتجمُّع لكبار السن ممن امتلأت جعبتهم بحكمة الحياة فأتوا هنا يفيضون بإبداعهم وعطائهم.

إنها سيدة رائدة ملهمة، منحت حياتها لأسرتها الصغيرة فأبدعت، وأنشأت أسرة طيبة يشار إليها بالبنان، وكذلك منحت معظم حياتها لأسرتها الكبيرة ومجتمعها الإنساني. سيدة لا تثنيها الصعاب عن إنفاذ عزيمتها وإرادتها الصلبتين. في كل طريق سارت به أضاءت شمعة، وقد رسمت خارطة طريق للمرأة، معبرة عن ذكاء وطموح وإرادة قوية. امرأة ليست مثل كل النساء، فهي تشحذ الهمم وتنشر العطر حيثما سارت. أرادت أن تكلل مسيرتها بمشروع الجمال والثقافة، وذلك حين ابتدأت مشوارها في تأسيس متحف رواقنا «ذاكرتنا الجميلة» ليكون حافظةً للترات والزي الأردني الأصيل، وهدية حب لوطنها تكلل به مسيرتها.

ها هي الآن تقرع ببدها بوابة التسعين وفي قلبها أحزان خريفية كثيرة، وعلى كتفها تقف حمامة سلام، وبيدها مفتاح الأمل والعمل. لا تتطلع إلى الوراء، وإنما تنظر دومًا إلى المستقبل. لا يجرؤ المستحيل على الوقوف في دربها، ولم تعطه يومًا انتباهًا. ديدنها العمل، وتؤمن بالحديث الشريف «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها».

على قمة جبل تقف لتقول ما قاله الشاعر التشيلي بابلو نيرودا: «أعترف أنني عشت».

جذور العمل التطوعي

عطاءٌ بلا حدود

ميسون العرموطي [1]

ساقتني الصدفةُ للّقاء بسيدةٍ مميزةٍ، في شهر كانون الثاني من العام 2000 في اجتماعٍ تأسيسيٍّ لأندية الخطابة الدولية في الأردن، وشاهدتُ من بين الحضور سيِّدةً وقورةً مألوفةَ الشكل. أهي السيدة هيفاء البشير التي علق اسمُها ورسمُها في ذاكرتي منذ أيام المجلس الوطني الاستشاري ومنذ انتخابات عام 1989؟!

ونادي الخطابة العالميّ هذا، هو نادٍ متعدد الجنسيات والخلفيَّات والأعمار، يعمل على تطوير الذات والارتقاء بالمهارات في مختلف مناحي الحياة، وقد استغربتُ وجود السيّدة هيفاء؛ فما الذي تريد أن تضيفه لتجربتها الزاخرة؟!

لكنَّ السيدة هيفاء كانت سابقةً لعصرها؛ فقد كانت خير مثالٍ للتعلُّم واكتساب المعارف والمهارات طوال الحياة.

وأنا شخصيًّا أعتبر أنَّ انتسابي لهذا النادي من العلامات الفارقة في حياتي؛ فالبناء والتجديد على ما اكتسبناه ضروريٌّ لمواكبة متطلبات العصر، ومن هنا ازداد إعجابي بهذه السيدة التي رغم تقدُّمها في السِّن ورغمَ كلِّ الصّعاب والتحديات في رحلة عمرها، لم يثنها كلُّ ذلك عن تطوير الذات، وقد بدأَتْ لغة التواصل والأُلفة تنبتُ ما بيننا، وبتُّ أشعرُ بمدى تقاربنا فكريًّا.

كان وجودي في نادي الخطابة الدولية مدخلًا للتعرُّف على جمعية الأَسِرّة البيضاء، وبدأَتْ زميلتي السيدة هيفاء تدعوني لحضور اجتماعات هذه الجمعية، وكنتُ أذهب على

(1) رئيسة جمعيّة الأَسِرّة البيضاء.

استحياء؛ فلم أرغب يومًا في أن أكون عضوًا بشكلٍ رسميٍّ في أيٍّ من المؤسسات الخيرية التطوعية، وذلك لأنه كان قد عَلِقَ في ذهني سابقًا أنَّ الجميع في مثل هذا النّوع من المؤسسات يعمل لصالح مجد الرئيس. لكنْ في ما بعد، ثَبَتَ لي العكس وأنَّ هذه السيدة تعمل بطريقةٍ أخرى متمثلةً القول: «كبير القوم خادمهم».

كلُّ ذلك جعلني أُولي العملَ الاجتماعيَّ مزيدًا من الاهتمام، وأنظر إليه بمنظورٍ مختلف، وقد ترددتُ كثيرًا ولعدةِ سنوات في الانضمام لعضوية الجمعيّة رغمَ دعمي المستمر لها وحضوري الفعاليات المختلفة التي تقيمها، إلى أن أصبحتُ عضوًا رسميًّا بتاريخ 1/ 1/ 2005.

وعن مسيرة جمعية الأَسرّة البيضاء التي انبثقت فكرتها عام 1970 من خلال وجود نقصٍ في الأيدي العاملة في مجال التمريض والمهن الطبية المساندة، أقول إنّ السيدة هيفاء البشير دعَتْ مجموعةً من زوجات الأطباء لتكوين نواة لجمعيّة تُعنى بهذا الشأن، وفي ما بعد أُضيف لأهداف الجمعية رعاية السّادة كبار السن، فقد كان البدء في التأسيس عام 1971، إذ كانت الفكرة الأساسية جديدة وطارئة على المجتمع الأردني الذي يتمتعُ بالتكافل وتقديس الكبار وتوقيرهم، فالأُسرة الممتدة تعيش في المحيط نفسه، كما أنّ الكبير لا يشعر بالوحدة، لكنْ، أيضًا كان هناك استشرافٌ للمستقبل، ذلك أنَّ العائلات أصبحت نوويَّةً، ما يعني انخراط أفراد العائلة كُلّها في العمل، ليبقى كبير السِّن وحيدًا قابِعًا بين جدران البيت بانتظار رحمة ربه، إضافةً إلى وجود العديد من المسنّين الذين لا يجدون من يعيلهم.

في البداية لم تلقَ الفكرة قبولًا في المجتمع الأردني الذي يُجلُّ كبيرَهُ، لكنْ، في ما بعد أصبحت الحاجة مُلحّةً لرعاية عددٍ من المسنين مُنحدري الصّحة ومحدودي الدخل، إضافةً إلى أنَّ الرعاية الصحية عالميًّا ومحليًّا قد جعلتْ الإنسانَ يتمتَّع بسنوات عمرٍ أطول.

تُعَدُّ دارُ الضيافة أكبر دارٍ إيوائية في الأردن لرعاية المسنّين؛ إذ أُقيمت على مساحة 27 دونمًا في منطقة الجويدة الحُرجية.

إنَّ مُخطَّط الدار ملائمٌ وطريقة الخدمة فيها صالحةٌ لقرنٍ قادمٍ من الزمن، وقد تم الافتتاح في عام 1979 بِسعةٍ تصل إلى 130 نزيلًا يقومُ حاليًّا على خدمتهم سبعون موظفًا، ويمكثون فيها حتى آخر العمر.

وهناك اتفاقيةٌ ما بين الدار ووزارة التنمية الاجتماعية التي تتكفَّل بـ 110 من النزلاء مقابل 280 دينارا شهريًّا، بالرغم من أنَّ التكلفة الفعلية في الدار للنزيل تصل إلى سبعمئة دينار في الشهر، ما بين الإقامة والطعام والرعاية الصحية والنفسية وتوفير الدواء وتغطية تكلفة طاقم الموظفين بإدارةٍ رفيعة وأيادٍ مؤهلة وخبيرة.

ومن تجربتي، يقع العبء الأكبر على الرئيس لِتَدبُّر الفرق في الموازنة، وهذا ما قامت به السيدة هيفاء خير قيامٍ عبرَ عقودٍ من الزمن، إذ وظَّفَتْ كلَّ قدراتها في الإقناع وكلَّ علاقاتها الاجتماعية لهدفٍ واحدٍ هو توفير التمويل اللازم لإدامة عمل الدار ورعاية كبار السِّن.

وقد أولت الدار اهتمامها بضرورةِ التعامل مع المجتمع المحليِّ وإدماج المُسنِّين، من خلال استقبال المبادرات الشخصية والمؤسسات التعليمية وأهل الخير من أبناء المجتمع الأردني الواحد، الذين يقضون وقتًا نوعيًّا مع المسنين، يتحدثون معهم ويُرفِّهون عنهم، ويقيمون الاحتفالات بالمناسبات المختلفة؛ مما يُقلّل الحواجز ما بين الأجيال والطبقات ويعمل على بثِّ روح الطمأنينة والفرح في نفوس الطرفين.

ويوجد في الدار حديقة منسقة لجلوس المُسنين وللمشي والاستمتاع بالطبيعة والهواء الطلق ودفء الشمس، وأحيانًا تقوم الإدارة باصطحابهم في رحلاتٍ محلية في ربوع الوطن.

كما تستفيد الدار من خبراتِ النزلاء السابقة من خلال مشاركة القادرين منهم، فالبعض يعتني بالحديقة والبعض لديه مهاراتٌ في الترجمة والعزف والغناء، مما يشعرهم بالأهمية، وأنهم ما يزالون قادرين على العطاء والإنتاج، كما تقوم النزيلات في الأعياد بإعداد المعمول ونقشِهِ باليد ليستشعروا البهجة في جوٍّ أُسريٍّ حميم.

وقد أولت الجمعية اهتمامًا خاصًّا بالمسنين القاطنين مع أُسرهم وفي منازلهم، وذلك من خلال إشراكهم في نشاطاتٍ نهارية ثقافية اجتماعية ترفيهية، ومن هنا انبثقت فكرة منتدى الروَّاد الكبار، هذا النادي النهاريّ الثقافي الاجتماعي في منطقة أم السماق الذي تم افتتاحه عام 2009، ليكون باكورةً لفكرةٍ رائدة في المجتمع؛ وذلك لتسلية السادة كبار السنِّ وإشغال أوقاتهم بكل ما يُمتِع ويفيد، فكان الذراع الثاني الداعم للجمعية والمُكمِّل لرسالتها في تخفيف العبء على الأُسر.

وخلال عقدٍ من الزمن أصبح المنتدى منبرًا ثقافيًّا يُعتدُّ به بجهود السيدة هيفاء البشير المتفرغة تفرغًا كاملًا وتطوّعيًّا، وبجهود المستشارة الثقافية الكاتبة سحر ملص.

وفي خطوةٍ وطنيةٍ جريئة للسيدة هيفاء البشير سيتمُّ استكمال متحفٍ يقع في محيط منتدى الرواد الكبار هو «رواقنا خزانة ذاكرتنا الجميلة»، الذي يهدف إلى ترسيخ الهوية الوطنية وتشكيل مرفقٍ سياحيٍّ ورافدٍ مادّي.

ومنذ عام 2015 بدأت السيدة هيفاء البشير بتعزيز دوْرِي، والتلميح بقوةٍ برغبتها في أن أكون خليفةً لها في رئاسة الجمعية.

وبعدَ إلحاحٍ شديد، وجدتُ نفسي أنصاع للأمر، فكانت انتخابات عام 2018 نقُطةً حاسمةً، وكان لا بُدَّ مِن ترشيح نفسي لأفوز بالرئاسة، وفي تلك اللحظة شعرتُ بِعِظَم المسؤولية وعاهدتُ نفسي أن أكمل الرسالة وأسير على النهج القويم وأبني على جهود من سبقوني.

أمَّا طبيعة العمل في هذه الجمعية فتتمثل بالشفافية وسيادة القانون وروح الجماعة والعمل كفريق. وأقولُ صادقةً إنَّ روح التنافس في بذل الخير والعطاء ما بين العضوات مدعاةٌ للسرور ومثالٌ يُحتذى.

أما عن مبنى دار الضيافة للمسنين، فقد اعتَرَتْه عوامل التآكل والقِدَم، وكانت اللفتة الكريمة لجلالة الملك عبد الله الثاني بن الحسين حفظه الله ورعاه خلال زيارته الكريمة

للدار، التي صادفت يوم وقفة عيد الفطر من العام 2019، الأثر الكبير؛ فقد أمر جلالته كادر الديوان الملكي الهاشمي العامر بالبدء الفوري بإعادة الصيانة والتأهيل والتجديد، بما يحفظ كرامة قاطنيها ليعيشوا في جوٍّ مُريحٍ ولائق وجميل.

ومن خلال العمل الدؤوب تحوَّلت الدار إلى واحةٍ خضراء جميلة تأسر القلوب وتبعث الراحة في النفوس، وقد انعكس ذلك على نفسية النزلاء والموظفين، إذ أصبحت توازي فندقًا راقيًا من الدرجة الأولى، خاصةً أنّ الدار تتمتع بإدارةٍ طيبة وذات خبرة في المجال التمريضيّ والإداري والطبّي.

إنَّ هذه الصورة المُشرِّفة لا تعني أنّه لا توجد هناك مشاكل تمويلية؛ فنحن نعاني من مشاكل في الحفاظ على أذرعنا المُدرّة للدخل، مثل دكان مستشفى الجامعة الأردنية وكافيتيريا مسشفى البشير التي ساعدت على إدامة رسالة الجمعية على مرِّ السنين.

ولقد تخطَّى عمر الجمعية نصف قرنٍ من الزَّمن، وبقِيَتْ شامخةً كالطَّود الأشمِّ رغم كلِّ الصعوبات والظروف والتحديات المادية.

إنَّ التخطيط الاستراتيجيّ المستقبليّ يفرض علينا أَن نكون مواكبين للعصر، لذلك ارتأَت الجمعية أن تتوسَّع بفتح باب العضوية، ليتمّ استقطاب الجيل الجديد لاستمرارية العمل والاستفادة من الخبرات الثرية.

خمسون عامًا من العطاء

ماري نفاع [1]

الاحتفاء بالصديقة هيفاء البشير بتسميتها «ضيف العام» من قبل مؤسسة عبد الحميد شومان، المؤسسة الثقافية الاجتماعية المتميزة، هو تكريمٌ لشخصيَّةٍ وطنيَّةٍ جمعت الصفات النبيلة لأبناء وبنات شعبنا، وتركت بصماتٍ لا تمحى في العمل الاجتماعيّ المؤسسيّ يفخر بها كلّ أردنيٍّ وأردنية.

رافقتُ البشير خلال مسيرةٍ قاربت 50 عامًا من العمل التطوعيِّ، ورأيت بأُمِّ عيني كيف كانت تفكّر وتخطط وتُشرف على تنفيذ مبادراتٍ مجتمعية لفائدة الناس من رجالٍ ونساء، وكيف كانت تُحوّل مؤسساتٍ وليدةً إلى مؤسساتٍ مستدامةٍ تتحدث عنها الأجيال القادمة.

كانت البداية في مطلع السبعينيات، حين دعانا زوجي الراحل الدكتور نبيه الشوارب، بعدما تولّى منصب مدير مستشفى الأشرفية، الذي حمل اسم «مستشفى البشير» لاحقًا، بعد استشهاد الدكتور محمد البشير زوج السيدة هيفاء رحمه الله، لتشكيل فريقٍ مساندٍ من زوجات الأطباء للإشراف على النظافة بشكلٍ عام وإنشاء غرفة ألعابٍ للأطفال وكافتيريا للأطباء.

كانت الدعوة بمثابة الشرارة التي أطلقت الطاقات الكامنة عند عددٍ من زوجات الأطباء والصديقات، وبدأنا مَسيرةً من العمل المشترك مع مستشفى البشير ومستشفى الجامعة

(1) ناشطة تطوعيّة وأمينة سرّ جمعيّة الأَسِرّة البيضاء.

الأردنية، منذ أن كان اسمه مستشفى عمّان الكبير، لتقديم الخدمة العامة للمرضى والعاملين والزوار، التي ما تزال تُقدَّم حتى الآن.

وقد عرفنا، نحن الذين رافقنا السيدة هيفاء البشير، كيف يتميّز الإنسان الذي لديه رؤية مستقبلية، إذ كانت تتلمَّس احتياجات الناس وتبدأ تصميم المشاريع الاجتماعية ذات المردود الإنسانيّ، وعند التنفيذ كانت تصل الليل بالنهار وتُسخِّر أفراد أُسرتها وكلَّ أعضاء الجمعية وتبثُّ العزيمة فيهم للبدء بالمشروع الجديد.

ولعلَّ قصة إنشاء مشروع «دار المسنِّين» في الجويدة تعطينا الصورة الحقيقية للعمل والتفاني والاحترافية أثناء التخطيط والتنفيذ والاستمرارية التي ميَّزت عمل السيدة هيفاء التطوعي؛ فقد كانت تؤمن بحجم المسؤولية الاجتماعية وحجم العمل التأسيسي، وفي الوقت ذاته تعلم أنَّ أيَّ مشروع يحتاج إلى الرعاية اليومية للبقاء والاستدامة، والشيء ذاته يقال في تأسيس منتدى الرواد الكبار.

وهكذا خططت وأشرفت على تنفيذ صروحٍ تقف شامخةً للتدليل على مستوى العطاء الذي بذلته وما تزال عبر سنوات عملها التطوعي في القطاع الأهلي، مع رفيقاتٍ واكبْنَ مسيرتها المفعمة بالعطاء والتفاني.

ولعلِّي لا أبوحُ بسرٍّ حين أقول إنَّ السيدة هيفاء كانت تجوب القرى الأردنية بصحبة أعضاء هذا الفريق، وتزور الأُسَر والمدارس التي لديها فتيات متفوقات في الدراسة قبل التخرج، وتعمل على إقناعها من أجل الالتحاق بعلم التمريض، حين كان الأردن يفتقد الإقبال على هذا النوع من الدراسة. وهي ذاتها التحقت، بعد أن كبر أطفالها، بكلية التمريض بالجامعة الأردنية وحصلت على شهادة التمريض بتفوق!

وإلى جانب المنهجية والرؤية المستقبلية، كان لدى السيدة هيفاء صفات شخصية قلَّ نظيرها، فقد كانت تحترم من تعمل معهم وتحفزهم للإبداع بعملهم وتذلل المشاكل التي تعترض طريقهم. كانت تعمل كلَّ ذلك بهدوءٍ دون ضجيج، وتحتضن رفيقاتها في الهيئة

الإدارية وتعزّز علاقتها مع أُسرهن، ولا تبخل بوقتها للوقوف إلى جانبهن إذا ما احتجن إلى ذلك؛ فقد تميَّزت بالإخلاص لعملها والإخلاص أيضًا لصديقاتها، كما تميّزت بالجرأة في قضايا احتياجات الجمعية أمام المسؤولين لتبيِّن قيمة العمل التطوعي الأهلي إلى جانب العمل المؤسسيّ لتحقيق مسيرة التنمية المجتمعية.

وبالإضافة إلى ذلك، تمتعت البشير بحسٍّ وطنيٍّ عروبيٍّ، عبر المواقع التي كُلِّفت بها، مثل لجنة الميثاق الوطني والمجلس الوطني الاستشاري أو المشاركة بمبادراتٍ شعبية لنصرة شعب فلسطين، وكان أحدثها تخصيص خيمة لنشاطات تدعم «غزة رمز العزة» في حديقة منتدى الرواد الكبار.

وقد يتبادر إلى ذهن الكثيرين السؤال التالي: كيف تحوَّلت السيدة هيفاء لمثالٍ يحتذى به، وكيف يمكن أن تتحول إلى نموذجٍ يحتذى من قِبَل الأجيال القادمة؟!

ولا شك أنَّ تَحوُّل السيدة هيفاء البشير إلى «قوة ومثال» يستند إلى صفاتها القيادية ذات البعد الشمولي، فقد كنتُ قريبةً منها وأرى كيف تُصدر أحكامها، فلم ألمس، ولو لمرّةٍ واحدة، أنَّها تُصدر أحكامها على أساسٍ عنصريٍّ أو طائفيٍّ أو بالواسطة؛ فهي تؤمن بالتعددية وتشجِّع على اتخاذ القرار بالاستناد إلى القدرات الشخصية والكفاءة.

ولقد رافقتُها حين شاركنا في مؤتمر بكين قبل 25 عامًا، ولا أنسى صورتها وهي تعرض اللباس الشعبيَّ لنساء السلط وهي ابنة نابلس؛ فقد كانت دائمًا تتعمَّد التذكير بعمق العلاقات ما بين شعبنا من أجل إعلاء الحسِّ الوطني الأردني إلى جانب قضية فلسطين العادلة، وإذا ما أُتيح لأيٍّ منكم أو منكُنَّ الاطلاع على القصص التي تُوجِّهُها إلى أحفادها وأحفادنا، فسترون أنها تعمل على غرس روح التضامن بين الناس وروح التسامح والمحبة بين أفراد الشعب الواحد.

أمَّا عن بِناء الشَّراكات ووضع أسس العمل المشترك بين مؤسسات المجتمع المدنيِّ فقد تركت أثرًا كبيرًا؛ فإلى يومنا هذا، ورغم تعب جيل الستينيات والسبعنييات، ما زالت البشير

تروي التاريخ الشفوي لعمل النساء الأردنيات من ذلك الجيل، لتوثيق قصة عطاء النساء في جمعية الأَسِرّة البيضاء وجهود النساء اللواتي تركنَ أثرًا في مسيرة التنمية الاجتماعية في الأردن الذي أحبَّها وأحبَّتْه.

المرأة النموذج

أمل مدانات [1]

ما أزال أذكر جيدًا ذلك السؤال الذي وُجِّه لي في أحد المؤتمرات النسائية، وقبل معرفتي بها، «من هي المرأة النموذج في حياتك؟!». سادت لحظة صمت، وأجبتُ بأسى: لا جواب لدي! ليس من السهل أبدًا اختيار شخصية لتكون النموذج والحافز والمنارة التي تسير على شعاعها، قبلها لم أتعرَّف على شخصيةٍ لأقول إنها مَنْ أطمحُ أن أكونها، وبعد معرفتي الوطيدة بها، مَنَحتْني ما كنت أبحث عنه لسنوات، منحتْني من دون أن تدري، هديةً قيّمةً لا تُقدَّر بثمن. كانت صلابتها وصبرها في مسيرة حياتها تظهر أمام عينيّ لدى مواجهتي لكلِّ عقبةٍ أو حالة إحباطٍ أو إنهاكٍ نفسيٍّ وجسدي، وكنت أقول لنفسي: لو هي مكاني، هل كانت لتسمح للتحديات، مهما كانت قاسيةً، بأن تحُبطها؟! طبعًا الجواب لا؛ لأنها قادرةٌ أن تتخطَّاها وبكل تصميمٍ وجرأة، وتسير بخطى ثابتة نحو تحقيق ذاتها وهدفها المجتمعيِّ ورسالتها في الحياة.

لا مفردات في اللغة تفيها حقها؛ هي مدرسةٌ بحدِّ ذاتها، ومسيرتها تُعتبر مرجعًا لحقباتٍ تاريخيةٍ مُهمّة جدًّا. باختصار، وجدتُ ملُهمتي في مشوار حياتي على الصعيد الشخصيّ والتطوعي، وما أروعها من مُلهمة! والآن إن سئُلتُ، من هي المرأة النموذج في حياتك؟! فإنّ جوابي وبثقة سيكون: إنها السيدة هيفاء البشير!

خلال فترة التسعينيات، وكنت لا أزال على رأس عملي، أخذتُ أبحث عن مرافق مناسبةٍ لكبار السن؛ فوالدي متقاعدٌ بعمر السبعين ولا يزال في نشاطه الجسديِّ، لكنْ،

(1) ناشطة اجتماعية وبيئيّة.

يعيش الوحدة طوال فترات النهار لانشغالي وإخواني بعملنا ومتطلبات الحياة. بحثتُ عن جهاتٍ خاصةٍ تُقدِّم خدماتٍ نهاريةً لكبار السنِّ للإبقاء على نشاطه وصحته لأطول فترة ممكنه ولتعزيز دوره في المجتمع، حالُهُ حال فئة كبار السن، بحثتُ وبحثتُ ولم أجد أيًّا منها!.. مُحاوَلة المشي مع والدي في الهواء الطلق كانت تُمثِّل معاناةً كبيرة؛ إذ لا أرصفة آمنة للمشي عليها، أخذتُ أبحث عن خياراتٍ أخرى لقضاء وقتٍ مع والدي بعد ساعات دوامي وقصدتُ حينها الحدائق، وللأسف، حتى الحدائق، لا يتوفّر فيها ركنٌ مخصصٌ لهم!.. تجربةٌ مريرةٌ عشتُها من معاناة الوالد صحيًّا منذ مرضهِ بالزهايمر لسنواتٍ إلى أن توفّاه الله. قلتُ وقتها: لو توفَّر للوالد مكانٌ لقضاء وقته أثناء ساعات النهار ومع أشخاصٍ من جيلهِ لما انحدرت حالته النفسية وصحتُهُ بهذا التسارع!!.. حالة والدي وما كانت عليه وما أصبحتْ عليه، جعلتني أفكِّر بنفسي حين أصل لمرحلةٍ متقدمة من العمر، وتساءلتُ: أين، وكيف سأقضي أوقات الفراغ بعد تقاعدي؟!

هل من يقرع الجرس؟!

تقاعدتُ بناءً على طلبي بُعمر الخمسين في العام 2010 لرعاية والدتي التي أُصيبت بجلطةٍ دماغية في بداية الثمانين من عمرها، وهي التي كانت لا تشكو من أيّ عِلةٍ جسدية. عادت بي الذاكرة للوراء، لأيام فترة تقاعد الوالد رحمه الله، ذكرى مؤلمة، فالوحدة كبرّته قبل أوانه. لن أُكرر معاناته، قلت لنفسي، ولا بدَّ أن أجد عملًا بدوامٍ جزئيٍّ لأُشغل نفسي، فأنا ما زلتُ في قمّة عطائي. استعنتُ بعاملة وافدة لتساعدني في رعاية والدتي، وبدأت أبحث عن عمل، لكنْ، باءت محاولاتي بالفشل؛ فمن سيوظّفني بعمري هذا؟! عشتُ حالةً من التوتّر، وكأنما كنت أبحث عن شيءٍ ما لا أعرف بعد ما هو؛ فأنا لم أتقبَّل يومًا مسار العمل الروتينيِّ لشخصي وللوظيفة، إذ كنتُ دائمًا مُبادرةً لأعمالٍ غير اعتيادية ولم أقبل أن أكون على الهامش. منصب مديرة الجودة هو منصبي الوظيفيّ في سنواتي الأخيرة في المؤسسة

العامة للإسكان والتطوير الحضري، وقد تمَّ ترشيحي لنيل جائزة الملك عبدالله الثاني للتميّز لفئة الموظف القيادي في العام 2005.

التقاعد بالمفهوم المجتمعي وقتها كان يعني النوم لساعاتٍ متأخرة في الصباح، والراحة وقضاء الوقت في الزيارات، وممارسة هوايات، وأنشطة وسفر ورفاهية. فكرة العمل التطوعي حينها لم تخطر لي على بال؛ إذ لا أحد من محيطي، سواء من القريبات لي أو الصديقات، سَلكنَ هذا المسار بعد التقاعد.

اللقاء...

لم يكن لقائي بها محض صدفة، بل جاء نتيجة جهدٍ مُثابر، إذ واظبتُ في البحث عن جهاتٍ لها علاقة بنشاطاتٍ نهاريةٍ لكبار السنّ، ونتيجة بحثي وجدتُ في العام 2010 اسم «منتدى الرواد الكبار»، ومؤسِسته هيفاء البشير! اسمها أعادني إلى بداية الثمانينيات حين التحقتُ بالدراسة في الجامعة الأردنية بتخصص علم الاجتماع وهي كانت طالبةً في كلية التمريض، وكانت حديث الطلبة في ذلك الوقت؛ هي زوجة وزير الصحة الدكتور محمد البشير الذي استشهد مع الملكة علياء في حادث الطائرة في العام 1977، فَمَن الذي يدفع سيدةً بعمرها وبمركزها إلى أن تدرس؟!.. فمِن غير الشائع وقتها رؤية سيدة تكبرنا عمرًا طالبة في الجامعة، كنت أراها عن بُعد فقط وأسمع عنها من صديقة لي كانت زميلتها في التمريض.

ازداد فضولي لأعرف عنها أكثر، أخذتُ أبحث بكلّ الوسائل المتاحة وعرفت عن أعمالها التطوعية الكثير، ولَكَم أُعجبتُ بما حققتْ من إنجازات، وهنا قلتُ لنفسي: هي ضالتي التي أبحث عنها!

أذكر جيدًا ذلك اليوم الربيعيّ من العام 2010، بعد بحثي عن عنوان مبنى منتدى الرواد الكبار وجدتُه ضمن محيط حديقة الأميرة رحمة بمنطقة خلدا. وأترك لخيالكم تصّور مدى

فرحتي بالوصول للمكان ومعرفتي بأنه قد يُسعفني حظي بلقاء السيدة هيفاء البشير. لدى دخولي المبنى أجابتني موظفة الاستقبال لدى سؤالي عن السيدة هيفاء، وقالت: أرجو أن تنتظري قليلًا، فهي في اجتماع لهيئة الإدارة حاليًّا. انتظرتُ وكلّي لهفةٌ للقائها. دقائق ورأيتها تخرج من قاعة الاجتماعات، لمحتُ مجموعة نسائية تعلو الابتسامات وجهوهن وهن بكامل أناقتهن البسيطة من تسريحات شعر وثياب، وقلت حينها: ما أجملهن والأجمل رسالتهن التطوعية العظيمة! أَسرعتُ صوبها، عرّفتها بنفسي، واعتذرتُ بأنَّه ليس هناك موعدٌ مسبقٌ للقاء. أتذكَّر اللحظة وكأنها حاضرة الآن أمام عينيّ: استقبلتني بوجهٍ بشوش، تشعُّ طاقةً رغم سِنّها، ولفَتَ انتباهي تناسق ثيابها وألوانها، ولم أصدق بأنني وجهًا لوجهٍ أقف أمامها! في مكتبها الأنيق جلستُ وعرَّفتُها بنفسي بتفصيل أكثر وتحدثتُ عن اهتمامي بكبار السن. رحَّبتْ بي وأعطتني من وقتها حوالي الساعة، ودعتني لحضور فعاليات المنتدى، فشكرتُها وقلتُ إنَّ هذا يسعدني بالتأكيد. توطّدت معرفتي بها عن قُرب، وكانت تطلب مني مرافقتها في بعضٍ من أنشطتها وفي الدعوات العامة، وأذكر أنّ أول زيارة رافقتُها فيها كانت للجامعة الأردنية لتتحدث لطلبة إحدى الكليات عن تجربتها في العمل التطوعي. تقدمتُ بعدة مبادرات بأعمال لها علاقة بطبيعة عمل ونشاطات المنتدى، فنالت إعجابها، ومن ضمنها إعادة تصميم محتوى بيانات طلب الانتساب لعضوية المنتدى، وهو الطلب المعتمد حتى اليوم.

«إلى الأستاذة أمل مدانات، مع احترامي لشخصية ذات مبادرات محترمة».. هيفاء البشير 4/9/2010. عبارةٌ خطَّتْها أناملها على مقدمة كتابها «محطات في رحلتي مع الحياة»، عدتُ ذلك اليوم للمنزل وأنا متلهفةٌ للبدء بقراءة سيرتها الذاتية، خصَّصتُ وقتًا من ساعات المساء والصباح الباكر جدًّا، وبدأت أقرأ الصفحات الأولى وهي ما كتبه الآخرون عنها. ولفَتَ انتباهي ما كتبت هي في وصف مسيرتها؛ «إنها بانوراما تصويرية لمجتمع عبْر سبعة عقود كان لي فيها إسهامات..». وسرعان ما أخذتْ قراءتي للكلمات والأسطر تأخذني

لمسارٍ مُصوّر وتتحوَّل لمشاهد أمام عيني وكأني أعيش اللحظة معها. أنهيت قراءة صفحات الكتاب الزاخرة بالمعلومات في أقل من 48 ساعة، مسيرتها في العمل التطوعي أثّرت في شخصيتي، وأثْرَتْ معلوماتي عن فتراتٍ زمنية مصيرية للوطن والمجتمع والمرأة. ترسَّخ إعجابي بشخصها وبعملها التطوعيّ مع الوقت، وكنت دائمًا أردد بيني وبين نفسي: كيف يمكن أن أسهم بإيصال نموذج السيدة هيفاء لشريحة واسعة من المجتمع وخاصة للأجيال الجديدة؟!

استمررت بالحضور والمشاركة بفعاليات المنتدى طوال فترة السنة ونصف السنة على هذا المنوال، لكن، نظرًا لتدنّي حالة والدتي الصحية، لم أعد قادرةً على الاستمرار في الحضور للمنتدى، لبُعد المسافة عن منزلي.

مُلهمتي..

لديَّ شغفٌ منذ الطفولة في ما يتعلق بنظافة الأماكن العامة وشوارعنا، وكنت دائمة التذمر والحزن لواقع الحال من ظاهرة الرمي العشوائي للنفايات، لكنِّي لم أكن أجرؤ على اتخاذ أيَّ خطوة عملية؛ لاعتقادي بأنني كفردٍ لا أستطيع أن أغيِّر واقعًا مؤلمًا نعيشه، إلى أن جاء يومٌ قررتُ فيه أن أتحرَّك بخطوة، وخطوة جريئة أيضًا، واضعةً نصب عيني صورة السيدة هيفاء البشير؛ إذ هي ملهمتي في العمل التطوعي. وفعلًا بادرتُ بالتحرك بدءًا من شوارع حارتي. بتُّ أجمع نفايات الشارع وأتعرَّف على عامل النظافة، وأستمع منه لهمومه وأتعرَّف على الناس التي تجني لقمة عيشها من نبش أكياس النفايات من حاوية حارتي!

آه كم آلمني ما شاهدت!.. وقلت لنفسي: كيف لم أكن أدرك حجم معاناة هؤلاء؟!.. كنتُ مثل غيري، أراهم بالبصر لا بالبصيرة!.. وقرّرتُ حينها التحرك وعلى نطاق واسع لتقديم يد المساعدة ولو لشخص واحد، والمدرسة هي البداية.

بدأتُ العمل التطوعي في مدرسة قرب منزلي لتوعية طلبة المدرسة في إدارة النفايات من الناحية الإنسانية وما يتبع ذلك من جوانب متعددة، منها الصحية، والبيئية، والدينية والاقتصادية. واجهتني تحدياتٌ لا تُعدُّ ولا تحصى، ومن كل صوب، وكنتُ كلّما فكرتُ للحظة بالتخلي عن مشروعي، أستجمع قواي وأنهض وأكمل مشواري، ومنارتي هي السيدة هيفاء البشير. كنت أسعى إلى تغيير ثقافة طلبة المدرسة وإدارتها وكوادرها في موضوع النظافة والرمي العشوائي للنفايات، والعمل على التوعية بضرورة تقليل الاستهلاك، وبأنَّ مخلفات كل مادة نستهلكها لها قيمة مهما صغرت في نظرنا، وهذا بحدِّ ذاته موروثٌ ثقافي ليس من السهل أبدًا تغييره، لكنّه ليس مستحيلًا، وهكذا، تابعتُ العمل بكلِّ شغفٍ وتصميمٍ على المضي قُدُمًا وبدعمٍ من مديرة المدرسة الأستاذة عائدة عرعر، الإنسانة الوحيدة التي كانت دعمتني وشاركتني الهدف والرؤيا بالاستثمار في جيل المستقبل. وفي العام 2012 أطلقت مبادرة مدرسية مجتمعية باسم «مشوارنا لصفر نفايات» استمر العمل بها لمدة 7 سنوات متواصلة، وقد حازت المبادرة على جائزة، وهي منحة مالية بقيمة 10000 دولار من إحدى الجهات الدولية الداعمة لمشاريع بيئية قائمة ومستمرة، ومن خلال المنحة تم إنشاء معرض دائم يروي قصة الأرض واستنزاف الإنسان لموارد الأرض وأثر الرمي العشوائي للنفايات على صحة الإنسان، إضافةً إلى حيّزٍ مكانيٍّ للتعلم والتدريب وصولًا للمعرفة المتكاملة للعيش بنظام حياة جديد لصفر نفايات بأسلوب تفاعلي يعتمد اللعب وقضاء وقتٍ ممتعٍ مع الطلبة.

مشواري الشخصي والمجتمعي والمدرسي مع النفايات وُثِّق بفيلم بعنوان «بحالي بلشت» وهو إنتاج مشترك مني ومن مخرج الفيلم إيلي نمري، وقد كان أول عروض الفيلم في فعاليات أسبوع عمان للتصميم في العام 2017، والفعالية الثانية كانت برعاية سمو الأميرة بسمة بتنظيم من هيئة الأمم المتحدة لشؤون الأسرة وبالتنسيق مع الهيئة الملكية للأفلام، كما اختير من إحدى الجامعات بدولة التشيك/ براغ ليُشارك بعدة عروض ومناطق

ضمن فعاليات مهرجان الثقافة العربي في التشيك في العام 2019، إضافةً لعدة عروض لطلبة المدارس والجامعات وجهات متعددة محلية ودولية.

فيلم «نضال امرأة»..

لقاء صدفة كان قد جمعني بالمخرج إيلي نمري، الذي قدِم لتنفيذ أعمال في الأردن، من ضمنها مشروع سلسلة وثائقية تحمل اسم «نضال امرأة». وقتها أدركتُ الفكرة التي كانت تجول بخاطري عنها، بضرورة توثيق مسيرتها النضالية ضمن فيلم يروي هذه المسيرة؛ ومن أحقُّ من السيدة الريادية هيفاء البشير لأن تكون لها الصدارة في سلسلة «نضال امرأة»، لما تُمثِّله من قيمٍ إنسانية ونموذج للتطوّع يجب أن يُحتذى به! دعوت المخرج إيلي نمري لحضور بعض أنشطة منتدى الرواد الكبار وعرَّفتُه على السيدة هيفاء البشير.

في الأسبوع الأخير من شهر تموز من العام 2016 قصدتُ والمخرج إيلي نمري السيدة هيفاء في مكتبها بمبنى الرواد الكبار، وطرحتُ عليها فكرة تصوير فيلم وثائقي من إنتاج المخرج إيلي نمري، لتروي هي مسيرتها، أجابت على الفور بأنها على استعداد تام للتصوير، جلسنا ساعتين من الوقت، زوّدتني بأسماء شخصيات نسائية تربطها بهنَّ علاقات عمل مشترك وصداقة ونسب، للتواصل ولتصوير لقاءات معهن. أنهيتُ كلّ إجراءات التواصل وتحديد مواعيد التصوير مع عشر شخصيات ممن سيتحدثون في الفيلم. ومن واقع معرفتي بها وبمحتوى كتابها «محطات في رحلتي مع الحياة» استلهمتُ إعداد الأسئلة التي ستوجَّه لها خلال التصوير وعددها خمسون سؤالًا. سلّمتها نسخة من ورقة أسئلة اللقاء، وقلت لها: ما الوقت الذي تحتاجينه لتكوني جاهزة للتصوير؟! قالت: من صباح الغد سأكون جاهزة!.. وتم الاتفاق على بدء التصوير في اليوم الثاني من آب من العام 2016.

هي اختارت المكان، منزل العائلة ومزرعتها في منطقة زي – السلط. توجهتُ صباحًا مع المخرج إيلي نمري ومدير التصوير بشير نمري والفريق الفني الذي قدِم من بيروت لهذه الغاية. تحت شجرة وارفة الظلال جلستْ على مقعد خشبي لا مسند له للظهر، واتخذتْ من الطاولة الخشبية متكئًا لها، وهي تحتضن بكفّيها كِتابها «محطات في رحلتي مع الحياة «. كانت ترتدي فستانًا أسود اللون يزُيّنه على الصدر والرسغ تطريزٌ فلاحي من إرث فلسطين وبألوان الفرح، متزينة بحَلَق أزرق اللون يليق بلون عينيها، ويتدلى من رقبتها عقدٌ بأحجار ملونة. جلستُ أمامها ونظرها كان موجهًا نحوي، بين يديَّ ورقة الأسئلة، أسألها وهي تسرد لي مراحل حياتها، كأنما تعيش اللحظة ذاتها، تحدّثتْ بأسلوبٍ ممتع وإحساسٍ مُرهف، صوتها وإحساسها وتعابير وجهها كانت تجعلني أعيش اللحظة معها أيضًا، عِشتُ معها حالة قهر الاحتلال الإسرائيلي في نابلس وألم الناس والحزن والألم لفقدها والدها وهي لا تزال طفلة، عشتُ معها للحظات من تحديات وإصرار على تلقي العلم والدراسة خارج سقف بيتها، ببساطة عشتُ معها كلَّ تفاصيل مسيرة حياتها من أيام الفرح والمرح والقهر، حيث التحديات والنجاحات.

لم تطلب أن ترتاح ولو لبعض الوقت، لا بل رفضت طلب المخرج إيلي نمري بأن تأخذ قليلًا من الوقت لتستريح، لم تشرب إلا رشفة ماء في الساعة الأخيرة من التصوير. أربع ساعات متواصلة من الحديث تمكّنتْ فيها من سرد مسيرة ابتدأتها من مراحل الطفولة من الثلاثينيات من القرن الماضي لغاية العام 2016. لم يكن الكتاب الذي تحتضنه بكفّيها مرجعها لتتذكر تفاصيل حادثة ما. إنَّ مسيرة نضال السيدة هيفاء ملحيس البشير لا تكفيها ساعة وثائقية فقط، مسيرتها تحتاج لساعاتٍ عديدة، لأنها ببساطة موسوعة متكاملة من الإنسانية وما تتميز به من عِلم وخبرات وحكِمة اكتسبتْها على مدى عقودٍ من الزمن.

خلف كواليس الكاميرا تحدثتْ بشغف شابة لا تزال في بداية حياتها العملية، تحدثت عن مشاريع مستقبلية، منها ما هو قيد التخطيط ومنها ما هو قيد العمل على أرض الواقع،

مشاريع تخصُّ توسعة منزل العائلة والمزرعة في زي ومشاريع قيد الدراسة لتوسعة منتدى الرواد الكبار وصيانة وتحديث مرافق دار الضيافة للمسنين. كانت تعيش القلق والخوف على استدامة مؤسساتها الإنسانية القائمة بشموخ وعز منذ السبعينيات من القرن الماضي، وتشاركها القلق رفيقاتها في جمعية الأَسرَّة البيضاء اللواتي يعملن كخلية نحل بالتواصل مع جهات عديدة محلية وعربية ودولية، لاستقطاب الدعم بكلّ أنواعة لتبقى أبواب المؤسسات الخيرية مُشرعة للمستفيدين منها.

أشعر بالفخر حقيقةً لكون فيلم «نضال امرأة» للسيدة هيفاء البشير وفيلمي الوثائقي «بحالي بلشت» تم اختيارهما من لجنة الأمم المتحدة لشؤون الأسرة ضمن مجموعة أفلام عالمية أجنبية، لتكون الأفلام العربية والأردنية الوحيدة التي تعرض ضمن أفلام المرأة للعام 2018.

وهنا لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر للسيدة هيفاء البشير على إصرارها لحضور عرض فيلمي «بحالي بلشت» في سينما الرينبو بمناسبة يوم المرأة العالمي في الثامن من آذار من العام 2018، ولن أنسى تكبّدها مشقة المجيء لمبنى السينما في جبل عمان/ شارع الرينبو وصعود الدرج للطابق الأول متكئة على عصاها ومساعدة أخرى. لقد شاهدتْ الفيلم باهتمام بالغ، وفي نهاية العرض، شكرتني على عملي التطوعي طوال السنوات، ولن أنسى جملتها لي: «لقدعملتِ بشغف واضح وبشخصك ما لم تعمله مؤسسات. ترفع لك القبعات». أن تُغدق عليَّ السيدة هيفاء بهذه العبارة، كان كافيًا لكي تنسيني تعبي وتكون الحافز لي لمزيد من العمل والعطاء. هي لم تَذْرِ وقتها بأنها كانت الدافع والمحرك لي لأحقق ما حققتُ من إنجازات بعملي التطوعي ضمن أجواء الاستغراب لتطوعي من بعض أفراد عائلتي وصديقاتٍ وقريباتٍ لي، إذ إنَّ السائد بأنَّ أي عمل يجب أن يحقق أجرًا، وعدا ذلك يعتبر مضيعة للوقت والجهد.

فيلم وثائقي درامي.. «رعاية لا حدود لها»

كانت مجرَّد فكرة تشاركتُ فيها والمخرج إيلي نمري وطُرِحَت على السيدة هيفاء البشير لتوثيق مسيرة خمسين عامًا من عمل جمعية الأسرَّة البيضاء/ ودار الضيافة للمسنين، وكان للدعم المالي من أهل الخير في بلدنا الدور في تنفيذ الفيلم وهو حاليًّا قيد الحلقة الأخيرة من عمليات المونتاج، وقد شارك في التمثيل نُخبة من فناني الأردن المتميزين: جولييت عواد، هشام هنيدي، إيمان هايل، جورج حجازين، أريج دبابنة، وإياد شطناوي، فلهم كل الشكر والتقدير.

ما مدى معرفة المرأة والمجتمع اليوم؟

ما مدى معرفة المرأة اليوم بمن هي الريادية التي شرّعت الأبواب لعمل المرأة المتزوجة؟!.. ماذا تعرف المرأة اليوم عن الدور الذي ساهمت به هيفاء البشير في الحركة النسوية منذ القرن الماضي، وكيف تمكَّنت مع رفيقاتها الرياديات في النضال، رغم كل التحديات، من تحقيق إنجازات نفخر بها اليوم؟!.. ماذا تعرف طالبات التمريض اليوم عن الدور الذي ساهمت به هيفاء البشير وماري شوارب ورفيقاتهما من جمعية الأَسرَّة البيضاء في تغيير نظرة المجتمع السلبية لمهنة التمريض في منتصف القرن الماضي؟!.. كيف واجهنَ وتغلّبنَ على التحديات المجتمعية، فأصبحت الفتيات يقفن طوابير للتسجيل في دراسة التمريض؟!..

هل يعلم المجتمع اليوم مدى التحدي الذي واجهته السيدة هيفاء ورفيقاتها من جمعية الأسرَّة البيضاء بإضافة هدف رعاية كبار السن لأهداف جمعيتهن، وذلك بناءً على توصية قُدِّمت لهنَّ من المغفور له وصفي التل رئيس الوزراء حينها؟!.. ثقافة وجود كبير السِّن في دار رعاية خارج محيط أسرته هي ثقافة لم تكن موجودة ولم يتقبلها المجتمع الأردني، فكل كبير هو سيد أسرته!.. حاربها المجتمع في حينه وانتقدتها وسائل الإعلام، وقيل بأنَّ هيفاء

البشير ستُشتت العائلات بمشروعها هذا، لكنْ، كانت لديها ورفيقاتها الرؤية بأنَّ الكبير سيحتاج يومًا للرعاية الإنسانية التمريضية.

تحدياتٌ لا تُعدُّ ولا تُحصى، إذ كانت ثقافة المجتمع تُكبِّل الفتاة والمرأة المتزوجة على السواء من كلّ الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وفي حقِّهنَّ في التعليم والعمل. اليوم، الفتاة تتجه للتعليم الجامعي بشكلٍ روتيني، تتخرج وتعمل، تتزوج وتكوّن أُسرةً وأطفالًا وهي لا تزال على رأس عملها. تنتْخِب وتُنتخب للمجالس البرلمانية. حقوقٌ ساهمت بها السيدة الريادية هيفاء البشير ورفيقاتها الرياديَّات وحاربنَ لعقود، فاكتسبَتْها المرأة بعد مسيرةٍ نضالية لا يستهان بها، وضمن ظروف جدًا صعبة.

وبنهاية الفيلم الوثائقي «نضال امرأة» كانت هذه العبارة رسالتها للمرأة...

«العمل هو ما أوصي به النساء. يجب ان تُسِهم المرأة في الحياة العامة كإنسانٍ مساوٍ للرجل.. دون معارك مع الرجال».

السيدة هيفاء البشير قرعت الجرس منذ عقدٍ من الزمن وأسَّست «النموذج الأول» لنادي نهاري لكبار السن هو منتدى الرواد الكبار.

ومن حديثها في نهاية الفيلم الوثائقي أختار رسالتها هذه: «لا بد من إطالة السنين الإنتاجيّة لكبار السن، الإنتاج بكل أنواعه، المادي الأدبي والثقافي».

وهنا أودُّ أن أنهي برسالة إنسانية بحقِّ كبار السن في بلدنا واستكمالًا لمسيرة الريادية هيفاء البشير: «آن الآوان لأن يقُرع الجرس ثانية لتتفرَّع وتمتد أغصان منتدى الرواد الكبار ضمن كل حديقة من حدائق عمان، لا بل لكلِّ حيٍّ من أحياء بلدنا. كبارنا هم بركتنا؛ فما أحوجنا اليوم لتوفير كل السبل والمتطلبات والمرافق التي تتضمن أنشطةً متعددة المحاور تضمن عامل الوقاية لصحتهم النفسية والجسدية لساعات النهار! بدلًا من بقائهم أَسرى للوحدة والعُزلة في عالم اليوم الذي بات يتطلب من كل أفراد الأُسرة مواصلة الليل مع النهار لتأمين لقمة العيش، والوقاية خير من العلاج.

أوُصي بأن ينتشر فيلم «نضال امرأة» وبأن تُنظّم فعاليات لعرضه في المكتبات، وخاصة فئة الشباب من الجنسين، كوثيقة تاريخية عن المسيرة الريادية لهيفاء البشير، وما تتضمَّنه من تأريخٍ لحقباتٍ تاريخية منذ فترة الثلاثينيات ولغاية هذا اليوم.

هيفاء البشير.. نضال امرأة

إيلي النمري

وإنه لمن دواعي سروري أن تكون لي مشاركة بالحضورفي فعالية تكريم الرائدة والملهمة السيدة هيفاء البشير، من خلال عرض دقائق من فيلمي الوثائقي «نضال امرأة.. هيفاء من نابلس إلى عمان»، الذي يلخص مسيرة حياتها منذ طفولتها في مدينة نابلس وانتهاء بمكان إقامتها في العاصمة عمان.

اتقدم من السيدة «هيفاء البشير» (أم مازن)، بأجل مشاعر الاحترام والتقدير للدور الذي قامت ولا تزال تقوم به في خدمة الإنسانية، والمرأة الأردنية تحديدًا، وإني على يقين من أن اهتمامها كبير جدًّا حتى هذه اللحظة لإيجاد أي فرص لتوسيع واستدامة مشاريعها الإنسانية الخيرية المُفعمة بالمحبة والإيمان والصدق، على مساحة المملكة الأردنية الهاشمية، ونرجو من الله وحده عزّ وجل، أن يمّد بعمرها ويمتعها بالصحة والعافية..

لطالما ارتبطت عبارة «المرأة في الوطن العربي» بالمآسي التي تعاني منها، أو بضعفها وعدم قدرتها على تحقيق أي هدف في حياتها، ويمكن للبعض تهميش دور المرأة وإنجازاتها ضمن تعقيدات مجتمعنا ونظرته إلى المرأة.

لكنــها سوف تجد طريقها وستثبت وجودها في المجتمع وساحة الإبداع.

وها هي السيدة «هيفاء البشير» قد خطّت طريقها الريادي واثبتت وجودها في مجتمعها رغم كل ظروفها الصعبة التي مرت فيها؛ فتاريخ السيدة «هيفاء البشير»، مليء بالأحداث الإنسانية، والنضالات والإنجازات، كما أنها من القلائل الذين ثاروا على أنفسهم قبل الثورة على المجتمع وما يحصل فيه من وقائع وأحداث حقيقية حصلت في حياتها، لذا هي

صممت على متابعة طريقها بالرغم من كل العقبات التي واجهتها، فكانت إنجازاتها الكثيرة التي حققتها، وكان لها صدى إيجابي على مجتمعها الأردني، فهي تؤمن بتكامل العمل بين الرجل والمرأة، ودورها في مجتمعها.

إن السيدة «هيفاء البشير» وما أنجزته في الاردن، فيه الكثير ليروى كزوجة وأم وأمرأة ثائرة ومناضلة، يستحق أن يُسلط الضوء عليه، لذا كنت اتمنى ان أقوم بتصوير فيلم سينمائي روائي درامي طويل وإنساني بإمتياز عن مسيرة حياة السيدة «هيفاء البشير»، ليكون القدوة للمرأة العربية؛ خصوصًا نساء المستقبل، فهي امرأة متميزة، أمومية الهوية والانتماء بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

قصدتُ عمان منذ سنوات بهدف تنفيذ سلسلة وثائقية تحمل اسم «**نضال امرأة**»، لتوثيق حياة نساء رياديات من الأردن. وقد التقيت صُدفة بالناشطة الاجتماعية والبيئية أمل مدانات، ولكونها كانت على معرفة بالسيدة «هيفاء البشير» دعتني للتعرف عليها كونها معُجبة بشخصيتها لما تُمثله من قّيم إنسانية ونموذج للتطوع يجب أن يُحتذى بها، واقترحت بأن تكون لها الصدارة بسلسلة «**نضال إمرأة**». حينها طرحت على السيدة هيفاء البشير فكرة تصوير فيلم يوثق مسيرة نضالها بطريق تليق بمكانتها وبإنجازاتها،

ودهشت لردة فعلها الايجابية بصدق وقالت على الفور بأنها على استعداد تام للتصوير.

ومن الجدير بالِذكر، ومما آثار دهشتي ودهشة فريق العمل اللبناني، أن السيدة هيفاء سردت مسيرة حياتها ونضالها بكل تفاصيلها، عبرعقود من الزمن في مدة تجاوزت الأربع ساعات متواصلة دون الاستعانة بأي قصاصة ورقية.

كلمة أخيرة باللبناني:

الى سيدتي الجميلة في الروح والمضمون والشخصية..

كتير حكيوا وكتبوا عنك..

ومهما حكيوا ومهما كتبوا..

ببقى قليل قدام اللي عملتيه..

هيفا البشير..

بتستاهلي أكتر بكتير من الي انعمل لك..

أنا إيلي نمري من لبنان..

بفتخر كتير بمعرفتي فيك..

وبشكر الله من كل قلبي على معرفتي فيك وبعيلتك...

والله يخلي عيلتك وشبابك..

ست هيفا.. أنا بحبك وكيف ما يفهموها يفهموها.

هيفاء البشير الإنسانة

النموذج الاستثنائي والمثل الأعلى

غانية ملحيس [1]

ربما لم أواجه في حياتي المهنية الممتدة لأربعة عقود ونصف مَهمَّةً أصعب من أن أنوب عن العائلة في تقديم شهادةٍ بعميدتها ومثَلها الأعلى هيفاء ملحيس البشير.

ذلك أننا بصدد ظاهرة استثنائية ونموذجٍ متفرّد لمدرسة ومؤسسة. جَمْعُ نساء تختزلها امرأة واحدة لا سقف لأحلامها ولا حدود لطموحاتها. تدير إرادتها بوعيٍ يُطوِّع المستحيل. عصية على الكسر رغم توالي الكوارث في مختلف محطات حياتها. وفي كل مرة يشتدُّ وجعها تتفجر طاقاتها الوفيرة التي لا تنضب.

إنسانة فريدة بكلِّ المقاييس، يصْدُق فيها قول الشاعر راشد عيسى بأنَّها «امرأة تعيش خارج لعبة الزمن، يسكن عقلها الطاعن في الحكمة والنُّبل صبيّةً مفعمةً بالحياة والنشاط. مثل نهرٍ شجاع كلما اقترب من المصبِّ، عاد إلى منبعه بنشاطٍ جديدٍ وروح شبابية دافقة».. هي فعلًا كذلك، وربما أكثر. في كلِّ مرة تلتقيها تُحدِّثك بشغف الحلم الأول، وتبلغك عن مشروعٍ جديد تخطط له وتخاله يحتاج دهرًا لتنفيذه، وعندما تلحظ دهشتك المرتابة، ترمقك بتلك النظرة العالمة بما يختلج بداخلك وتحجم عن البوح به.

إنسانة لا تعرف المستحيل، تؤمن بأنَّ النجاح ممكنٌ على الدوام، لكنه يرتهن بقرار تبلوره رؤية واضحة، وأهداف محددة وخطة عمل وبرامج تنفيذية لتحقيقها.

(1) باحثة وكاتبة اقتصادية وسياسية

توقن بأنَّ العمل عبادة، وأنَّ على الإنسان أن يعمل لدنياه كأنه سيعيش أبدًا، وعليه أن يحتكم في سلوكه للمعايير والقواعد التي سنَّها الخالق لحساب الآخرة كأنه سيموت غدًا. وتفهم العمل التطوعي كضريبة مواطنة واجبة الأداء، تحكمه قواعد ملزمة تتأسس على مبدأ التكامل بين الجهد الرسمي والجهد الأهلي، ويرتكز على التضامن والتكافل بين أفراد المجتمع، وينجح بالعمل الجماعي لفريق عملٍ متكامل واعٍ لمسؤولياته المجتمعية، يلتزم في عطائه الوضوح والشفافية والنزاهة، ويحمل بذور الخير وينثرها لإنصاف المحرومين والمحتاجين والفئات الأقل حظًّا، فيحفظ كرامة المواطن ويقيه شرور العوز، ويحمي بذلك أمن المجتمع ويعزز مناعة الوطن الذي يستظلُّ به الجميع.

تقدّس الحياة ولا تفقد الأمل حتى في أحلك الظروف، تؤمن بأنَّ الإله الخالق كرَّم الإنسان ذكرًا وأنثى، ومَنَحَهُ نعمة العقل ليعقل ويفعل ثم يتوكل عليه، فيغيِّر واقعه بالعقل والعلم والحلم والتخطيط والعمل والصبر والتفاني والإيثار والتواضع والمثابرة، فيؤسس لمستقبلٍ أفضل.

لا تعرف الكلل، ولم تتردد يومًا على الدوائر الرسمية لطلبٍ خاص، وإنَّما لتأمين احتياجات بناء المؤسسات المجتمعية لتقديم الخدمات للفئات الشعبية الأضعف. تزور أهل الخير لتوفير الموارد، وتستعين بكلِّ من يستطيع الإسهام في النهوض وتعزيز المناعة المجتمعية، وتذهلك بجَلَدها ومثابرتها وإرادتها التي لا تلين، وعند اكتمال الإنجاز تنسب الفضل لأهله، وتشعُّ عيناها بفرحة الولادة الأولى وتبدأ التفكير بالمشروع الذي يليه.

ولأنَّ شهادة المرء بأهله مجروحة، حتى إن تعلَّق الأمر بشخصية استثنائية لامرأة هي وزميلاتها الرائدات محور إجماع يصعب تكراره، فقد آثرتُ تناوُلَ شهادة العائلة بعميدتها بعرضٍ موضوعيٍّ مسهب لسيرتها ومسيرة حياتها ودورها وتأثيرها المجتمعي، كي يتمكن من لم يحظَ بفرصة معرفة هيفاء ملحيس البشير، الإنسانة، ورائدة العمل التطوعي، والناشطة السياسية والمجتمعية، والشخصية العامة، وسيِّدة المجتمع الحريصة على

التواصل مع الجميع، من بلورة قناعاته بنفسه، ولكي يتاح للأجيال الفتية الاقتداء بجيل الرواد عبر الإلمام المعرفي بالظروف من جهة، وبالمعايير الموضوعية المتصلة بالأداء القابل للقياس والتقييم، وكي يتسنَّى تحييد تأثير المشاعر الجياشة التي تفيض بها قلوب أبناء العائلة التي عاصرت هيفاء وعرفت فيها الابنة الحانية البارّة بأهلها والزوجة الودودة الشريكة المسؤولة المؤازرة، والأم المتفانية المعطاءة فائضة الحنان، القادرة على أن تظلل برعايتها العائلة بأكملها والمجتمع بأسره، والأخت المتفهمة المصغية التي يمكن للإخوة- إناثًا وذكورًا- البوح لها بمكنونات قلوبهم، والعمة والخالة المحبّة التي ترشد ولا تكبِّل، والجدة العصرية التي يهرع إليها كل الأحفاد لالتماس الدفء والاعتراف بالأخطاء وتبيّن الصواب، والصديقة الحاضرة عندما تحتاج لمرآة ترى فيها ذاتك بوضوح، فتهرع إليها وتسلمها طوعًا مفاتيح عقلك وقلبك، وتأتمنها على مخزن أسرارك.

وقد اخترتُ تضمين شهادتي نتائج تتبّع سيرتها ومسيرتها بقدر ما تسمح به مشاهدات شخصية رسخت في الذاكرة لإلقاء الضوء على الظروف التي شكَّلت وعيها، وما تضمنته الوثائق المنشورة وأتاحت المجال لتتبُّع مسارها على مدى سبعة عقود متصلة من العمل الجاد في المجالات المتنوعة، كالتعليم والتنمية المجتمعية والسياسة والإدارة والأدب والثقافة. فصنعت منها الإنسانة النموذج التي نحتفي بها، كواحدة من أهم رائدات العمل النسوي والعمل التطوعي في الأردن على الصعيدين العربي والدولي، دون إغفال دور زميلاتها الرائدات، اللاتي نذكر منهنَّ على سبيل المثال لا الحصر السيدات: إنعام المفتي، ليلى شرف، الدكتورة عايدة المطلق، إميلي نفاع، انتصار جردانة، ليلى طوقان، نائلة الرشدان، نادية بشناق، عليا أبو تايه، عايدة النجار، عبلة أبو علبة، أسمى خضر، صبحية المعاني، فايزة الزعبي، حياة حويك، هناء سعد الدين، ماري شوارب، ميسر السعدي، سرى خوتات، آمنة الزعبي، ليلى نجار، انتصار الفرخ، عصام عبد الهادي، ليلى نفاع، محاسن الإمام، وداد قعوار، فاديا سمارة، وأخريات تميَّزن بحضور مؤثر في الحياة العامة في ساحة

تعجُّ بالأقطاب الذكور، وأسهمن في تطوير الوعي الجمعي الأردني، وفي تحقيق الاعتراف المجتمعي بجدارة النساء في ممارسة العمل العام في المجالات كافة، وفي الإقرار بأهمية وجدوى العمل التطوعي وضرورته في تفعيل المواطنة الحقَّة للإسهام بالنهوض المجتمعي والوطني.

وُلدت هيفاء ملحيس في التاسع والعشرين من نيسان عام ١٩٣١ في مدينة نابلس، وهي الصغرى الأثيرة بين ستة أبناء، يكبرها ثلاثة أشقاء وشقيقتان.

غادرتها الطفولة مبكرًا، عندما استيقظت صبيحة أحد أيام عام ١٩٣٥ على صوت بكاء أدهشها، لتعلم أنَّ والدها قد فارق الحياة وأنَّه ذاهبٌ للقاء ربه. لم تفهم ابنة الرابعة معنى ذلك، فاصطحبتها والدتها لتوديع والدها المسجى على السرير، وأدهشها أنه لم ينهض كعادته ويستقبلها بحلو كلامه وابتسامته العذبة، وساعدها على تجاوز ألم الفقدان المبكر حرص أمها وشقيقها الأكبر حفظي- الذي يكبرها بنحو عقد- على تعويض غياب الأب الذي لم يرسخ منه في ذهنها سوى طيفه ورنين صوته وبريق عينيه وبسمته الحانية.

وتظافرت الظروف الشخصية والعامة لصقل وعي الطفلة مبكرًا؛ فقد شهدت في سنواتها الأولى إضراب عام ١٩٣٦ احتجاجًا على الغزوة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية لوطنها، وقبل أن تبلغ التاسعة من عمرها اندلعت الحرب العالمية الثانية، فعايشتْ وقائع تواطؤ الكون على وطنها فلسطين، وشاهدت وحشية جيش الانتداب البريطاني ضد أبناء شعبها، واستعصى عليها استيعاب هول الظلم البشري بالتآمر على بلدها الصغير للتكفير عن جرائم ارتكبها الغزاة الأوروبيون في أوطانهم ضد مواطنيهم اليهود، لتجنيدهم قسرًا في مشروعهم الاستعماري التوسعي.

وراعها ما يمكن أن يتحول غليه ضحايا المجازر النازية الذين رفضت الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية إغاثتهم وأغلقت حدودها أمام الناجين منهم، ووحدَهُ وطنها استقبلهم!

لقد تعذّر عليها فهم كيف يمكن أن يتسنّى للضحايا ذاتهم- الذين عانوا أهوال المجازر- اتّباع نهج جلاديهم ومحاكاة سلوكهم في إبادة واقتلاع أبناء شعبها الفلسطيني الضعيف الأعزل، واستساغة العيش فوق أنقاضه.

ولم تكد تبلغ الثانية عشرة من العمر، حتى صدمتها وفاة شقيقها عدنان الذي يكبرها مباشرة، وترك رحيله المفاجئ جرحًا غائرًا في روح العائلة، وبلورتْ قسوة الظروف الخاصة والعامة وعي كبارها وصغارها بجوهر الحياة، ووسمتْ شخصيات أفراد العائلة ذكورًا وإناثًا بالجديّة والمسؤولية لجعل وجودهم المؤقت فيها مجديًا.

تلقَّت هيفاء ملحيس تعليمها الابتدائي والإعدادي في مدارس مدينتها نابلس، ولتميّزها وتفوقها حصلت عام ١٩٤٦ على منحة دراسية لدار المعلمات في العاصمة القدس، ولم تمنعها صرامة تقاليد المدينة العريقة التي يُمليها المجتمع الذكوري المهيمن من التشبث بفرصة استكمال تعليمها الثانوي الذي يقتضي منها العيش بعيدًا عن الأسرة وهي ما تزال في الخامسة عشرة من عمرها، فالتحقت بدار المعلمات بدعمٍ من شقيقها الأكبر حفظي، الذي كان يرى في التعليم السلاح الأمضى لمواجهة تحديات الحياة، وكان يؤمن بتساوي حقِّ الإناث مع الذكور في امتلاكه، كما كان واثقًا بقدرة شقيقته هيفاء على تحمُّل المسؤولية تمامًا كالرجال؛ إذ عايشا معا تجربة أمهما الأرملة الشابة في رعاية وتنشئة الأسرة وإدارة شؤونها بكفاءة واقتدار -رغم محدودية الموارد- بعد الرحيل المبكر لرفيق عمرها، وأدركا مبكرًا أنَّ المرأة عندما تمتلك الوعي والإرادة تستطيع أن تماثل الرجل في الأداء وقد تتفوق عليه.

غير أنَّ التطورات السياسية والأمنية التي شهدتها فلسطين في أربعينيات القرن العشرين وقرار الحكومة البريطانية بإنهاء انتدابها على فلسطين في منتصف أيار عام ١٩٤٨ -بعد استكمال مَهمّتها واكتمال جاهزية الحركة الصهيونية لإنشاء دولة إسرائيل فوق الجزء

الأكبر من فلسطين- الذي أعقبه إغلاق دار المعلمات في القدس قبل اجتياز الطالبات لامتحان المترك، أعاد هيفاء وزميلاتها إلى ديارهن قبل أن يحققن حلمهن بالتخرج.

ولحسن الطالع تطوَّعت إحدى المعلمات المؤهلات في مدينة نابلس لمتابعة تعليم الطالبات وإعدادهن للتقدم لامتحان المترك، فحصلت هيفاء على شهادة الاجتياز للتعليم العالي الفلسطيني بامتياز عام ١٩٤٨، وقد أسهم ذلك في تنمية إدراك هيفاء لقيمة المبادرة والعمل التطوعي في التأثير الإيجابي على حياة الأفراد والنهوض بالمجتمع.

بعد تخرجها التحقت بكادر التعليم، بدايةً كمعلمة بديلة في المدرسة الفاطمية، ثم عُينت رسميًا في المدرسة العائشية في مطلع عام ١٩٥٠ ولم تتجاوز بعد التاسعة عشرة.

وخلال عملها بالتدريس وجدت في مسرح المدرسة نافذة تثقيفية وتنويرية، فنشطت في تحويل النصوص الأدبية الهادفة إلى نصوص مسرحية تشترك في عرضها المعلمات والطالبات معًا.

كما استقطبت السياسة اهتمامها وهي ترى تداعيات النكبة على حياة شعبها الفلسطيني وعموم الأمة العربية، وشجَّعها شقيقها حفظي، الذي كان ناشطًا في حزب البعث العربي الاشتراكي حديث النشأة، على الانتماء للحزب، فكانت هيفاء ملحيس من أوائل النساء اللواتي ينضممن إلى عضوية حزب البعث.

وكما كان للقدر دورٌ حاسمٌ في تشكيل حياة أبناء الشعب الفلسطيني، فقد لعب، أيضًا، دورًا حاسمًا في تشكيل حياتها الشخصية، فإلحاق الضفة الغربية بالضفة الشرقية عام ١٩٥٠ لتشكلا معًا المملكة الأردنية الهاشمية، وحَّد الضفتين جغرافيًّا وسياسيًّا وديموغرافيًّا، وحطّم الحواجز التي أنشأتها اتفاقيات سايكس- بيكو (١٩١٦)، ووعد بلفور (1917)، وفرضها وكرّسها الانتداب البريطاني بقراره عام (١٩٢٣)، بفصل شرق الأردن عن فلسطين كي يتسنى له استبدال فلسطين بإسرائيل.

وأتاحت إعادة وصل الضفتين غرب وشرق النهر الفرصة لاستعادة الروابط الاقتصادية والاجتماعية بين أبناء الأمة الواحدة في الأردن وفلسطين، وخصوصًا بين مدينتي السلط ونابلس، فالمسافة بينهما لا تتجاوز ساعة سفر بالسيارة، كما أنَّ السلط كانت قد استقطبت عددًا من عائلات مدينة نابلس في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين فاستقروا فيها، وقصدها، أيضًا، عديد اللاجئين الفلسطينيين بعد النكبة عام ١٩٤٨، فألِفَ أهل السلط والقادمون إليها بعضهم بعضا، وأذابت عمليات المصاهرة المتنامية بينهم الحواجز، وأسهمت في تغيير بعض العادات الاجتماعية التي كانت سائدةً، آنذاك، فقد كان زواج الفتيات يقتصر على محيط الأقارب، كما أنّ تجاوزها لا يتعدى نطاق المدينة.

ويشاء القدر أن يتصادف وجود صديق مشترك لشقيقها حفظي وللطبيب الشاب محمد البشير ابن عشيرة العواملة في مدينة السلط، فيجمع ثلاثتهم حزب البعث العربي الاشتراكي، وتصادف أن كان الطبيب الشاب يبحث عن شريكة لحياته ناضجة ومتعلمة وواعية، فأشار عليه الصديق المشترك-حسني الخفش- بهيفاء شقيقة حفظي، وعندما تعرّف عليها، لفتَهُ مع جمالها نضج وعيها وقوة شخصيتها واستقلاليتها، وأعجبه تشاركهما الانتماء إلى حزب البعث، ما يؤسس لتقارب فكري يثري الشراكة بينهما، فتقدم لخطبتها.

ووجدته هيفاء الرجل المناسب لمشاركته حياتها، ودعمَ شقيقها حفظي اختيارها فأقنعا والدتهما- التي كانت شديدة التعلق بها وتريد بقاءها بالقرب منها، وتزوجا عام 1954، وانتقلت للعيش مع زوجها في مدينة السلط، فاستقبلها أهلها بالودّ والحفاوة والرغبة في التعرف على مزايا العروس الشقراء صاحبة العيون الزرقاء القادمة من خلف النهر.

لم تكن السنوات الأولى سهلة رغم الحفاوة الكبيرة لعائلة زوجها الممتدة، والرعاية الخاصة لوالد زوجها الإنسان عبد الرحمن البشير الذي حاول تعويضها الفقدان المبكر لأبيها.

وتفهَّم الزوج الواعي الذي أدرك موجبات التكيّف لزوجته الشابة مع حياتها الجديدة وعائلته الممتدة والعشيرة العريقة وأهالي مدينة السلط، ولفتَهُ حنينها الكبير إلى أهلها ومدينتها نابلس وافتقادها لعملها، فكان شديد الحرص على قضائهما عطلة نهاية كل أسبوع مع أهلها في نابلس، وحافظوا على ذلك طوال السنوات منذ زواجهما حتى عدوان حزيران عام ١٩٦٧.

وما أزال وإخوتي نذكر كم كنا نستبق الأيام كي يأتي يوم الخميس، لنستقبل، والفرح يغمرنا، عمتنا الحبيبة هيفاء وأسرتها، وعمَّنا الحبيب رامز وأسرته، وكان يسكن في مدينة الزرقاء بعد عودته في مطلع الستينيات من أمريكا للمشاركة في تأسيس مصفاة البترول الأردنية التي عمل بها مديرًا فنيًّا لنحو ثلاثة عقود متصلة.

وما أزال أذكر ذاك البريق الذي كان يشعُّ في عيون جدتي وأبي، خصوصًا عندما كانت تطلُّ العمة هيفاء بابتسامتها المشرقة وأطفالها الأربعة؛ إذ لم يكن التوأم قد وُلد بعد، فتعمّ الفرحة والبهجة على الجميع كبارًا وصغارًا، ولن أنسى، أيضًا، ما حييت، الدموع الغزيرة التي كانت تنهمر على وجه الأم المتشبثة بحضن أسرتها بعد ظهر كل يوم جمعة، عندما يحين موعد العودة وكأنها غربتها الأولى، فكانت تبكينا جميعًا.

وكم كنت أعجب لقدرتها الاستثنائية على التواصل مع كل فرد من أفراد عائلتنا الكبيرة المتفاوتة في الأعمار، فقد كانت تُشعِر كلَّ واحد باهتمامها الخاص بشؤونه، فيعتقد بأنه الأثير لديها، وازداد عجبي عندما كبرت وأصبحت أمًّا.

ورغم مسؤولياتها وانشغالاتها الكثيرة، ما تزال تمتلك طاقة هائلة من الرعاية والاهتمام والتواصل مع كل أجيال العائلة، وتحظى بمحبتهم وإعجابهم جميعًا لتمتُّعها بذاكرة نادرة تتسع لحفظ أسماء جميع أفراد عائلتي ملحيس والبشير، وتمتد لأفراد عائلات الأنسباء والأصدقاء الكثر.

لم تضعف مسؤولياتها كزوجة لطبيب دائم الانشغال بمعالجة أهل مدينته لندرة الأطباء آنذاك، وأم لأربعة أطفال تتابعت ولادتهم خلال ست سنوات، ولم تحدّ مستلزمات أدائها الكفؤ من عزيمتها على استئناف عملها بالتعليم.

وعلى الرغم من أنَّ القانون كان يحظر عمل النساء المتزوجات، فقد تمسّكت بفرصة للعودة للتدريس عندما شغر موقع معلمة اللغة الإنجليزية في المدرسة الثانوية بالسلط، فتطوّعت للعمل ريثما يجدون بديلة لها، وعندما لم يتمكنوا صدر قرار استثنائي عام ١٩٥٦ بتعيينها رسميًّا لتدريس اللغة الإنجليزية لطالبات المرحلة الثانوية في السلط، وكانت بذلك أول امرأة متزوجة تنال هذا الحق في الأردن.

غير أنَّ الأمور لم تجرِ كما تمنت وأَمِلتْ؛ إذ كان وزير التربية والتعليم ضد عمل المرأة المتزوجة، فأصدر عام 1962 قرارًا تعسفيًّا بنقلها لمدينة الكرك، ما دفعها لتقديم استقالتها، غير أنها لم تستسلم، فإيمانها المطلق بحقّها في العمل، وتجربتها الثريّة، دفعاها للتطوّع لإدارة روضة للأطفال في مدينة السلط في العام ذاته، واصطحاب أبنائها الصغار معها.

في العام 1966 عُيِّن زوجها مديرًا إداريًّا لوزارة الصحة، فالتحقت الأسرة به في عمّان، وفي العام نفسه أنجبت هيفاء توأمًا وأصبحت أمًّا لستة أبناء ذكور استحوذوا مع مساندة الزوج الذي تم ابتعاثه للقاهرة للتخصص في الطب الشرعي والسموم بجامعة عين شمس على جُلِّ اهتمامها، وفي العام 1970 عُيِّنَ زوجها الدكتور محمد البشير وزيرًا للصحة، وكان قد لاحظ خلال عمله بالوزارة نقصًا كبيرًا في قطاع التمريض الأردني، واعتمادًا كبيرًا على الممرضات الأجنبيات، خصوصًا من الهند وبنغلاديش، فقد كانت العادات والتقاليد وثقافة العيب تدفع الأردنيين لمنع بناتهم من دراسة وممارسة مهنة التمريض.

ولقد سعى الدكتور محمد البشير من خلال موقعه وزيرًا للصحة إلى تغيير المفاهيم السلبية السائدة التي تحول دون عمل الفتيات الأردنيات في مهنة التمريض، فقد كان يرى أنَّ فوائد ذلك لا تقتصر على النواحي النفسيّة للمرضى المرتبطة بالتواصل اللغوي والعادات

والتقاليد، بل تمتدُّ، أيضًا، إلى الجانب الاقتصادي والتنمية عبر رفع النسبة المتدنية لمشاركة النساء الأردنيات في العمالة، إلى جانب توفير تحويلات العاملات الأجنبيات من العملة الصعبة لبلادهن.

في البداية حاول الاستعانة برجل دين ليتحدث في لقاء تلفزيوني عن شرف الالتحاق بمهنة التمريض، دون أن يحدث ذلك أثرًا، وهنا أدركت هيفاء الزوجة الشريكة والمواطنة المسؤولة أهمية المبادرة للمساهمة في صنع التغيير المستحق، فاتصلت بزوجات الأطباء وتشاورت معهنَّ لتأسيس جمعية خيرية لدعم قطاع التمريض، وتوافقن على إنشاء «جمعية الأسرّة البيضاء» وتم تسجيلها رسميًّا عام 1970، ووضعن خطة للتوعية وتوجهن إلى مدارس الإناث لتعريفهنَّ بأهمية مهنة التمريض، وبالرسالة الإنسانية التي تنطوي عليها لمساعدة المرضى، وبالدور الاقتصادي والاجتماعي المهم لعمل المرأة، وبالوفورات الاقتصادية الناجمة عن إحلال العمالة الأردنية محلَّ العمالة الأجنبية.

وقد نجحت حملة التوعية التي ترافقت مع اعتماد نظام للحوافز لقطاع التمريض وافتتاح المدارس التمريضية في كلٍّ من وزارة الصحة والخدمات الطبية العسكرية والجامعة الأردنية، في تشجيع الفتيات الأردنيات على الالتحاق بدراسة التمريض وامتهانه، والاستغناء تدريجيًّا عن الممرضات الأجنبيات، ولم تقتصر خدمات عضوات الجمعية التطوعيّة على ذلك، بل امتدت لدعم السلك التمريضي في المستشفيات.

وقد لاحظ رئيس الوزراء، آنذاك، دولة وصفي التل النتائج الملموسة التي أسفرت عنها جهود النساء الرائدات الأردنيات، فدعاهنَّ إلى الاهتمام أيضًا برعاية المسنين الذين لا تتوفر لهم رعاية أسرية.

ولمواكبة مأسسة العمل التطوعي وتوسُّع نطاق اهتماماته، التحقت هيفاء ملحيس البشير عام ١٩٧٤ بدورة في معهد الإدارة الأردني، وفي العام ١٩٧٥ تمَّ وضع حجر الأساس لإنشاء دار الضيافة للمسنين، وانضمَّتْ أيضًا إلى عضوية المجلس الصحي العالي عام

١٩٧٧، وبدأت الدار باستقبال النزلاء عام ١٩٧٩، وتولّت هيفاء رئاسة جمعية الأسرّة البيضاء، وتم تجديد انتخابها لعدة دورات متتالية للفترة ١٩٧٠-١٩٨٣، ثم أُعيد انتخابها لرئاسة الجمعية عام ٢٠٠٠، وجُدِّد انتخابها لدورات متتالية حتى منتصف العام ٢٠١٨، وسُلِّمت الأمانة إلى جيل جديد، فانتخبت السيدة ميسون عرموطي لرئاسة الجمعية التي باتت اليوم تستضيف ١٣٠ نزيلًا من المسنين من الجنسين، ممن لا تتوفر لرعايتهم فرصٌ أسرية.

ولم تقتصر اهتماماتها على الجمعية ورعاية المسنين فقط، بل اهتمت أيضًا بالنهوض بقطاع المرأة الأردنية، فسعتْ لتفعيل دور النساء الأردنيات في خدمة وتنمية المجتمع، وبرزت مشاركتها عام 1974 في اللجنة التحضيرية للإعداد لمؤتمر المرأة الدولي، وشاركت في مؤتمر برلين الشرقية لطرح قضايا المرأة الأردنية.

وفي عزِّ انشغالها بالعمل للنهوض بالمجتمع الأردني، عاجلها القدر باختطاف زوجها وشريكها ورفيق دربها وعماد أسرتها، وفاجأتها نشرة الأخبار في التاسع من شباط عام 1977 بنبأ سقوط الطائرة العامودية التي كانت تقلُّ الملكة علياء ووزير الصحة في طريق عودتهما من زيارة لمستشفى الطفيلة، فأحسَّت بالأرض تميد من تحت قدميها، وبالكاد تمكنت بعد عامين من استعادة وعيها ولملمة أشلاء روحها وطي الحزن العميق الذي سكن قلبها وعقلها برحيل شريك حياتها، تاركًا بعهدتها مسؤولية رعاية ستة أبناء أكبرهم في السَّنة الجامعية الثانية في كلية الطب.

وكان للكوارث المتجددة التي لا يقوى عليها غالبية البشر تأثير مغاير على هيفاء ملحيس البشير، فقد دفعتها الخسارة الفادحة المفاجئة لتوأم روحها إلى استجماع طاقاتها للمضي قُدمًا في تحقيق حلمهما معًا، فنذرت عمرها لتربية أبنائها كما تمنى والدهم، وإعدادهم لتحمُّل مسؤوليات المواطنة الصالحة.

وتفرّغت للعمل التطوعي والخدمة العامة، وقررت أيضًا استئناف دراستها الجامعية عام 1979، واختارت قطاع التمريض الذي استأثر النهوض به باهتمام رفيق دربها، ولأنها لا تعرف المستحيل فقد تحصلت على قرار استثنائي بمعادلة شهادة المترك وخبراتها، للسماح لها بالالتحاق بكلية التمريض، ولم تَدَع انشغالاتها ومسؤولياتها الكثيرة في العمل التطوعي تؤثِّر على تحصيلها العلمي، وقد دعمها أبناؤها الطلبة بكلية الطب، فتبادلوا الأدوار وتحوَّل التلاميذ إلى مدرسين للأم التي عادت إلى مقاعد الدراسة بعد انقطاعٍ لأكثر من ثلاثة عقود متصلة، وكانوا خير مُعين في شرح ما تحتاجه الطالبة المستجدة لفهم تعقيدات العلوم الطبية.

وحصلت عام ١٩٨٣ على شهادة البكالوريوس في حقل التمريض، واستحقَّت هيفاء ملحيس البشير بجدارة أن تكون الطالبة الأكثر تميّزًا والأكبر سنًّا في تاريخ الجامعة الأردنية (٥٢ سنة)، ونالت مرتبة الشرف الأولى لتفوقها، وترأست واندمجت في لجنة التمريض الوطني عام ١٩٨٥.

كما واصلت السعي لتنمية معارفها العلمية، فالتحقت بدورة الإدارة الاستراتيجية للمنظمات غير الحكومية في مدينة فيرمونت عام 1988 في الولايات المتحدة الأمريكية.

واستطاعت هيفاء ملحيس البشير، برؤيتها الثاقبة وعزيمتها الثابتة وتجربتها الرائدة، أن تجسِّد عمليًّا معاني الوفاء والانتماء والثبات والريادة والإرادة والمثابرة، وصنعت بنفسها الإنسان النموذج الذي يجب أن تتمثل به الأجيال الفتية رجالًا ونساء.

وقد أرّقها كثيرًا إهمال المرضى النفسيين في مجتمعنا المحافظ، فعملت مع عدد من الزملاء والزميلات على إنشاء الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي وتولَّت رئاستها عام ١٩٩٤، وأنشأت عام ٢٠٠٣ «مركز الصفصاف» لرعايتهم، وضمَّ المركز مشاغل للتأهيل المهني من أجل إعادة دمجهم بعد تعافيهم في المجتمع. كما اهتمَّت برعاية الأحداث

فترأست لجنة مكافحة جنوح الأحداث عام ١٩٨٨، وانضمَّت في العام نفسه أيضًا لعضوية لجنة مكافحة الجريمة، وتولَّت رئاسة مركز الصفصاف منذ تأسيسه حتى اليوم.

واهتمَّت هيفاء ملحيس البشير أيضًا بالصحة النفسية لكبار السنِّ، فأنشأت مع زميلاتها الرائدات عام ٢٠٠٩ «منتدى الرواد الكبار» للاهتمام بالشؤون الثقافية والترفيهية للمتقاعدين من الجنسين، وهي تتولى طوعيًّا مسؤولية المدير العام، وقد بات المنتدى أحد أهم الصروح الثقافية في الأردن.

كما انضمَّت إلى ائتلاف مؤسسات المجتمع المدني الصحي عام ٢٠١١، للدفاع عن حقوق المريض، فترأسته، ثمَّ انضمت إلى المجلس الصحي العالي عام ٢٠١٧ لتصبح مندوبة عن الائتلاف الصحي.

ولم تقتصر انشغالات هيفاء ملحيس البشير على القطاع الصحي، بل اهتمت بالتنمية المجتمعية الشاملة، وأولت اهتمامًا خاصًّا للنهوض بالنساء الأردنيات، فساهمت بفاعلية في تأسيس الاتحاد النسائي الأردني العام، وشغلت موقع مقررة اللجنة التأسيسية للاتحاد النسائي الأردني العام، وفازت بانتخابات رئاسة الاتحاد في أول دوراته عام ١٩٨٣، وأعيد انتخابها مرتين لرئاسته حتى عام ١٩٩٠، ومثَّلت الاتحاد في المحافل العربية والإقليمية والدولية، وقد ترأست الوفدين الرسمي والشعبي لمؤتمر نهاية عقد المرأة في نيروبي عام١٩٨٥، وشاركت في المؤتمرات المحلية والعربية التي تُعنى بشؤون المرأة والتنمية المجتمعية، وترأست اجتماعات لجنة المرأة العربية في جامعة الدول العربية عام ١٩٨٤.

كما شاركت في مؤتمرات الأمم المتحدة الدولية في برلين وكوبنهاجن ومانيلا وفينا، وسالزبورغ، ونيروبي، ويوغسلافيا، وبكين في الأعوام ١٩٧٥، ١٩٨٠، ١٩٨٢، ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥، على التوالي.

وشاركت في عضوية المكتب التنفيذي لاتحاد الجمعيات الخيرية لمحافظة البلقاء خلال الفترة ١٩٩٤-١٩٩٦، وأيضًا في عضوية لجنة التنسيق للمنظمات غير الحكومية المنبثقة عن اللجنة الوطنية للمرأة.

كما انضمَّت لعضوية الهيئة التنفيذية للجنة الشعبية لدعم الانتفاضة الفلسطينية ١٩٨٨-١٩٩٠.

وإلى جانب اهتماماتهما الاجتماعية والسياسية والنقابية، مارست شغفها بالكتابة، وخصوصًا في أدب الأطفال، فألَّفت مجموعة قصصية للأطفال للفئة العمرية ٤-١٠ سنوات: «حكايات جدتي»، «فرح وبرج الحمام»، «يوم ماطر وقوس قزح»، «الفرح والسعد» التي استحقت عليها جائزة الملكة نور للقصة القصيرة لأدب الأطفال عام ١٩٩٧، وألحقتها بمجموعة قصصية لليافعين بعنوان « أنا وسما « عام ٢٠١٥، وقد حصلت على عضوية الهيئه الإدارية لاتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين للفترة ١٩٩٥- ١٩٩٧.

كما وثَّقت مسيرة حياتها الحافلة بالعطاء في كتاب بعنوان «محطات لرحلتي مع الحياة» صدر عام ٢٠١٠، وتقديرًا لجهودها المتميزة، تم اختيارها لتولِّي مواقع رسمية، فعُيِّنت عضوةً في مجلس أمانة العاصمة عام ١٩٨٠، كأول امرأة تتبوأ هذا الموقع، وجددت عضويتها في مجلس أمانة عمان لدورات متتالية حتى العام ١٩٩٤، كما عُيِّنت عام ١٩٨٢ عضوًا في المجلس الوطني الاستشاري الذي تم إنشاؤه لتعويض غياب مجلس النواب، واستمرت حتى عام ١٩٨٤ عند عودة الحياة البرلمانية، وقد تمَّ اختيارها، أيضًا، عام ١٩٩٨ لعضوية مجلس أمناء جامعة آل البيت.

وعرفانًا بدورها المتميز الممتدّ على مدى أكثر من سبعة عقود متصلة في خدمة مجتمعها ووطنها العربيّ، حصلت هيفاء ملحيس البشير على عديد الجوائز والأوسمة، فتمَّ منحها وسام الاستقلال من الدرجة الأولى من جلالة الملك الحسين عام ١٩٧٥، تقديرًا لدور جمعية الأسرَّة البيضاء الاجتماعي، ومُنحت جائزة أديلييد رستوري من المركز الثقافي في

روما تقديرًا لدورها في العمل الاجتماعي عام ١٩٧٧، ووسام الحدائق من الملكة نور للإسهام في أنشطة الحدائق العامة بأمانة عمان عام ١٩٨٨، وجائزة الملكة نور لرائدات العمل النسائي عام ١٩٩٥، وجائزة الأُسرة المثالية في العالم العربي عام ٢٠٠٦ من سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حاكم دبي، ووسام العطاء من جلالة الملك عبد الله الثاني في عيد الاستقلال عام ٢٠٠٧، وشهادة ودرع من منظمة الصحة العالمية للمشاركة في الخدمات الصحية التطوعية، وجائزة العمل التطوعي لرعاية كبار السن عام ٢٠١٥ من سموّ الشيخ سلطان القاسمي حاكم الشارقة، واختيرت عام ٢٠٢٠ من بين ٣٦٥ امرأة عربية ملهمة. وقد تعرضت هيفاء ملحيس البشير في مطلع آذار ٢٠٢٠ لأكبر محنة بفقدان ابنها البكر الدكتور مازن البشير وهو في عزِّ عطائه، الطبيب الإنسان الذي أحبَّه كلُّ من عرفه، فأدمى برحيله المفاجئ إِثر أزمة قلبية حادة قلوب جميع الأردنيين، فتقاطروا بالآلاف، نساءً ورجالًا، شيوخًا وشبابًا لشدِّ أزر أُمِّهِ المؤمنة الصابرة الصامدة المُكابرة المحتسبة، فشدت بصلابتها أزرهم، وأوردت في رسالتها لشكر المعزّين قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «لا دار للخلق بعد الموت يسكنها.. إلا التي كان قبل الموت يبنيها».

وأسكنت حزنها الدفين قلبها المكلوم واستجمعت أشلاء روحها، وعادت هيفاء ملحيس البشير لتواصل عملها التطوعي ولتطمئنَّ على نزلاء دار المسنين ومركز الصفصاف، ولاستئناف الجهد الدؤوب لتأسيس متحف التراث الأردني، لتكثِّف مساعيها من أجل توفير الموارد الضرورية لتأمين استمرار المؤسسات المجتمعية لخدمة وطنها الأردن الذي أحبَّته كما أحبت وطنها فلسطين، وأمضت العمر في خدمته. وما تزال، وهي على مشارف التسعين، تتكئ على عصاها وتواصل عطاءها بالهمَّة ذاتها، وبالثبات والإصرار والعزيمة والإيمان.

وأختتم شهادتي بالشكر الجزيل لمؤسسة عبد الحميد شومان لتميّز حضورها في الساحة العلمية والمعرفية والثقافية والاجتماعية الأردنية، ولحرصها على الإضاءة على جيل الرواد

وتكريم سيدة متفردة بوعيها الإنساني والمجتمعي وعطائها الوفير في خدمة وطنها وشعبها على مدى سبعة عقود متصلة. وتفتخر عائلة ملحيس بأنّها أنجبت إحدى رائدات التغيير والتأثير والإلهام العربيات، وأحد أبرز أعلام العمل التطوعي في الأردن والوطن العربي. وإننا وجيل الأبناء والأحفاد قد حظينا بفرصة العيش في زمنها، والتعلُّم منها، والتتلمذ على يديها في كيفية حب الوطن واستحقاق شرف المواطنة، وبناء نموذجٍ رائدٍ نُجلُّه ونقدِّرهُ، ونأمل أن تقتدي به الأجيال الفتية.

الطالبة الجامعية الاستثنائية

سالم ساري [1]

البدايات: الطالبة والجامعة في سياقات اجتماعية ثقافية مبكرة. تعود معرفتي بهيفاء البشير إلى ما يقارب أربعين عامًا. تحديدًا إلى صيف/ خريف عام 1979، وهو عام تعييني مدرسًا في قسم علم الاجتماع في الجامعة الأردنية، أول جامعة عربية أسعدني العمل فيها، بعد حصولي على دكتوراة الفلسفة في علم الاجتماع من جامعة برادفورد/ إنجلترا (1978). وقد كُلِّفتُ بتدريس مساق «علم الاجتماع الطبي» Medical Sociology لطلبة كلية الطب، وفي نظام للساعات المعتمدة وتداخل الكليات الجامعية وتكاملها كان على الطلبة أن يأتوا إلى حيث هو الأستاذ المحاضر، إلى مُدرَّجات كلية الآداب. وأذكر من طالباتي في هذه المادة، من كلية التمريض: سوسن المجالي، منار النابلسي.. والكثيرات غيرهنَّ من المتفوقات. كما قمتُ بتدريس مساق مبادئ علم الاجتماع الذي حرصت الجامعة الأردنية على تدريسه منذ البداية، كمتطلب جامعة لجميع طلبة الجامعة. وكانت الجامعة تُخصِّص لتدريسه مدرجات أكبر وأكثر اتساعًا لاستيعاب العدد الكبير من طلبة الجامعة، وكان علم الاجتماع في الجامعة الاردنية- كما تم تقديمه وترسيخه على أيدي رائدِهِ الشاب النشط، آنذاك، الدكتور سري ناصر- مادةً «شعبية» جذَّابةً يحرص طلبة الجامعة، بشتّى تخصصاتهم، على الإقبال عليها والاستمتاع بدراستها، خيارًا أو قرارًا.

(1) أستاذ علم الاجتماع.

وأذكر أنني، وبينما كنتُ مسرعًا في دخول المحاضرة الأولى لي في تدريس مبادئ علم الاجتماع (أعتقد أنها كانت في المدرج القديم الرحب لكلية الحقوق)، استوقفتني طالبة تقف مع مجموعة صغيرة من زميلاتها، سارعت بالترحيب بي وتقديم نفسها مبتسمةً بثقة واعتزاز: أهلًا دكتور، أنا طالبة عندك في هذه المادة!.. أنا «هيفاء البشير»، وهذه قريبتي (اسمها «شادن» على ما أذكر).

رحبتُ بها مبتسمًا، ثم هممتُ بدخول باب المدرج حتى لا أتأخر على طلبتي المنتظرين في الداخل.

لم يكن من عادتي أن أهتمَّ بالتفاصيل، ولكنْ، استوقفتني التفاصيل هذه المرة، فسألتها، وهي تتبعني وقريبتها للدخول بعدي إلى المحاضرة: هل أنتِ زوجة المرحوم الدكتور محمد البشير؟!.. قالت: نعم!..صممتُ بعد وفاته أن أواصل تعليمي الجامعي، رغم سني الأكبر من الطالبات كما ترى، وأعدك أنني سأكون طالبةً مواظبة أؤدي واجباتي مثل أصغر طالبة عندك!».

وفي رحاب تلك البدايات، لا بد أن أقول إنَّ ما قدَّمتْهُ هيفاء، طالبتي الجامعية الجديدة، الناضجة الواعدة، من صِيَغ للتعريف والتعهد، قد ارتبطتْ في ذهني بملاحظتين للمقارنة والمتابعة، ضمن السياقات المبكِّرة للجامعة والمجتمع والثقافة المجتمعية الأردنية:

الملاحظة الأولى، هي أنَّ هيفاء الطالبة الأكبر سنًا كانت صادقة في تقديمها لنفسها، مُدركةً راغبةً في كلِّ ما كانت مُقدِمةً عليه من مسؤوليات دراسية جامعية، ومصممة واثقة على النجاح فيه، وقد برَّت بوعدها، وقامت بواجباتها الدراسية كاملة، واستحقَّت النجاح الكبير فيه بأهليةٍ واستحقاقية، ولم يحدث أن طلبت من أستاذها، تلميحًا أو تصريحًا، مراعاة ظروفها غير العادية، أو الرجاء بـ «تنجيحها»، كما كانت العادة (المزعجة والمألوفة لكثير من الطلبة في ظروف عادية تمامًا!).

أمّا الملاحظة الثانية، فهي أنَّ هيفاء الطالبة الناضجة الواعية لم تقدّم نفسها تقديمًا عشائريًّا تقليديًّا صارخًا، أو تعرّف نفسها تعريفًا مناطقيًّا ضيقًا، كما كان سائدًا مقبولًا (بل ومُشجَّعًا عليه) آنذاك في مجتمع الجامعة الطلابي والأكاديمي والإداري، وهو النسخة المصغّرة عن المجتمع الأردني الكبير، إذ نجحت في هذه الفترة الحرجة (حقبة السبعينيات) كلٌّ من الثقافات الفرعية الخاصة للشرائح الاجتماعية المختلفة، والثقافة المجتمعية العامة للمجتمع الكلي، في حمل أفرادها على الاعتقاد بأنَّ إقحام العشيرة للانتساب والتعريف والتأطير، في شتى العلاقات والتفاعلات: العلم والتعليم، السياسة والاجتماع، الدوائر والمؤسسات، تضمن لهم، حقيقة أو خيالًا، توقُّع كثيرٍ من المزايا والمكاسب، وتدرأ عنهم كثيرًا من المضار والخسائر!!

ولا بدَّ لكلِّ متابعٍ أمين للسيرة الذاتية لهيفاء البشير الطالبة في مراحلها الابتدائية والثانوية والعليا في فلسطين، وفي مراحلها الجامعية وإنجازاتها المجتمعية الإنسانية المتواصلة في الأردن، أن يرى أنّ هذه الفتاة المؤمنة بدينها وعروبتها، لم تكن يومًا لتتجه في أي محطة من محطات عمرها المديد إلى تعريفات ضيقة للهوية، أو أنماط هشّة للإنجاز، أو أشكالٍ نفاقية للانتماء؛ فنابلس كما السلط، والقدس كما عمان، وكلاهما، كما القاهرة وبغداد، لا تفصل بينها إلا مسافات سائلة للعاطفة والحب، للعمل والإنجاز، وللإيثار والتضحية!!

التطورات والإسهامات والريادة والقيادة النسائية التنموية: لم تتوقف هيفاء البشير عند الحصول على الشهادة الجامعية الأولى، ولم تقف ساكنة بانتظار «الكرتونة» متعطلةً عن الحركة (بل لعلي أقول إن بكالوريوس التمريض 1983 كان بالنسبة لها تحصيل حاصل!)؛ فقد مضت متحركةً ببرنامج مكثف للعمل النسائي في التنمية والتحديث والتمكين، بالتأسيس والمشاركة والتطوير (تأسيس ورئاسة للاتحاد النسائي الأردني، جمعية التأهيل النفسي، اتحاد الجمعيات الخيرية، اتحاد ائتلاف مؤسسات المجتمع المدني الصحيَّة.. والكثير غيرها).

ولا بدَّ للراصد المُقيِّم لبرنامج العمل التغييري الطموح الذي اختطَّته السيدة هيفاء للنهوض بالمرأة الأردنية تنويرًا وتطويرًا، وتمكينًا، من تسجيل ملاحظتين:

الملاحظة الأولى، أنّها لم تنطلق في برنامجها النسائي التغييري التمكيني بهدي نظريات نسوية ثورية تحريضية (ماركسية مثلًا)، ولم تأخذ لها قدوةً غربيةً غريبةً، ولم تسعَ لتنفيذ برنامجها بأموال أجنبية مريبة – رغم شحِّ الموارد والمصادر في مجتمع الندرة والعسرة آنذاك، وإنما اتجهت هيفاء، ومنذ البداية، اتجاهًا عربيًّا أردنيًّا نقيًّا بمقاربات ومناهج وبرامج عربية واقعية، فنالت المباركة والتأييد والدعم الرسمي والشعبي معًا، وحققت في مشاريعها التنموية الإنسانية قبول الخاصة وتقبل العامة، في مجتمعها المحليِّ والكبير، بنتائج ميدانية ملموسة متماسكة، في الفكر والممارسة.

ويمكن الملاحظة، في المقابل، أنَّ النظريات والمنطلقات النسوية (الهجينة) لغيرها من النساء الأردنيات والعربيات هنا وربما في أي مكان آخر (نوال السعداوي، في مصر مثلا)، لم تَقُد إلى تغييرات جوهرية صلبة في وضعية المرأة العربية، وإنَّما آلت إلى غربة واغتراب المرأة الأردنية/ العربية عن نفسها ومجتمعها وواقعها المغاير.

الملاحظة الثانية، أنّ السيدة هيفاء لم تعمد يومًا، في برنامجها للتغيير والتنمية والتحديث، إلى الاستعجال أو الاستفراد أو الاستفزاز، وإنّما امتلكت في حركتها للاستطلاع والإقناع، قدرةً هائلةً على اكتساب الثقة – الرسمية والشعبية معًا– (والثقة هنا هي رأسمال اجتماعي ثقافي تاريخي، أو هي، كما يرى خبراء التنمية، بحكمة معاصرة، فضيلة تنموية كبرى، لازمة في مجتمع تقليدي خجول متردد، تبدو مكوناته الرئيسة عصيَّةً على التغيير، رافضة لمساراته المجهولة، وغير مشجّعة على قبول نتائجه غير المضمونة).

وبإنجازاتها النسائية التنموية الهائلة، صنعت هيفاء بنفسها ولنفسها نموذجًا نسائيًّا مبكرًا نادرًا في التغيير والتأثير... نموذجًا تنمويًّا رائدًا بالغ القوة والبساطة، وباذخ النقاء والسماحة.. نموذجًا ما يزال حيًّا قائمًا فينا وبيننا، وهو وإن كان فريدًا مستعصيًا على

الجحود والنكران وبعيدًا عن المظهرية والادعاء، فإنه نموذجٌ تنمويٌّ تراكميٌّ ذو قابلية ومرونة للبناء والتطوير، يعدُ بنتائج عملية في التغيير والتأثير.

اليوم.. الرائدة المعاصرة والأستاذ القديم: لم يكن يدور في ذهني، ولو للحظة، أنَّ تدريس مادة سوسيولوجية تمهيدية واحدة لطالبة التمريض الواعدة، سيجعل مني أستاذًا لها مدى الحياة!!

يحلو لهيفاء البشير، رائدة العمل النسائي الأردني الكبير، أن تبادر الى الاعتراف، بنبل وشجاعة، إلى التعريف بي، بفخرٍ واعتزاز، بأني أستاذها، وهي تُصرُّ على هذا الاعتراف والتعريف، في كلِّ مناسبة، ولكل الحاضرين في منتداها «الرواد الكبار»!.. وهي، وإن كانت طالبتي يومًا، فأنا الآن أحد طلاب مدرستها التنموية المجتمعية الراسخة، الذين يعرفون ويعترفون ويفتخرون بإنجازاتها الهائلة التي صنعتها في مسيرة نضالية طويلة لمجتمعها الكبير، دون استئثار أو استكبار.

هذه هي هيفاء البشير، كما أراها اليوم، في محطة واحدة مبكِّرة من محطات حياتها: شابَّةٌ فائقة العزم والإيثار والإصرار.. كما هي فائقة التواضع والبساطة والجمال.

وأراها اليوم، في كل مراحل حياتها، مناضلةً صلبةً واقفةً شامخةً، تمامًا كما تبدو، بنزاهةٍ وتجرد، بعيون أحد أقرب الناس إليها، ابنها البكر الجميل، الدكتور مازن:

»... امرأة آمنت بربِّها وبدورها في مجتمعها الصغير والكبير.. رفضت أن تعيش على الهامش، قبلت الاختلاف واحتوتْهُ.. تعاملت مع الصعاب بروح رياضية، وما زادتها الكبوات إلا عزمًا وتصميمًا وحكمة. كان كلُّ يوم يشكِّل لها تحديًا من نوع جديد!.. رفضت أن يأتي صباحٌ جديد بغير مشروع جديد.. كانت في مَهَمّة، ولا بدَّ منها، وإن طال السفر«!!

وأخيرًا أقول إنْ كنا نهدي تحية إعجاب وإكبار لمكرّمتنا الكبيرة هيفاء البشير، صاحبة العمر المديد والعزم الشديد، رئيسة منتدى الرواد الكبار، فإنَّ هيفاء تهدينا لحياتنا أنماطًا من

الحقيقة والحكمة ما هو أعظم وأكرم؛ فقد جعلتنا ندرك بثقة متعاظمة النقاط الثلاثة التالية: ليست الحياة مجردةً -بحدِّ ذاتها- هي المهمة.. وإنما المهم هو نوعية الحياة، وليس العمر معطى بيولوجيًّا وراثيًّا خالصًا.. وإنما العمر معنى ثقافيٌّ مكتسب، كما أنّ المهم في هذه وذاك هو القيمة الإنسانية المجتمعية المضافة!!

«أم مازن» ما قصّرت!

عامر محمد البشير [1]

في منتصف ليلة شتاءٍ شديدة البرودة من شهر شباط من العام ١٩٧٧، صحوتُ ولم يتجاوز عمري عَشْر سنواتٍ فزِعًا، وقد اختلطت أصوات الرياح بأصوات جمهرةٍ خارج باب الغرفة التي أنام فيها أنا وشقيقي التوأم صلاح الدين، تعلو وتخفُت، استغربت وجودها في منزلنا في ساعةٍ مُتأخرةٍ من الليل، تخلّلَها نحيبُ سيداتٍ وصراخ رجالٍ، منهم من أجهش بالبكاء. انتظرتُ طويلًا قبل أن أتجرّأ على الخروج من باب غرفتي، وقد غادر النّعاس جفوني، وبعد أن استجمعتُ قواي لمواجهة ما لا تُحمدُ مواجهته، وجدت منزلنا قد عجَّ بالعشرات لكثيرين لم أعرفهم، وقد أدمت الدموع عيون بعضهم، وارتجفت شفاهُ آخرين، ونظرات ذهول لمن تبقّى منهم، قلّةٌ قليلةٌ عرفتهم ولم أجد ما يُبرّر وجودهم على غير العادة في ساعةٍ مُتأخرةٍ من تلك الليلة إلا سببٌ واحدٌ هو أنَّ هناك أمرًا جلَلًا قد حصل سيُغيّرُ حياتي وحياة أُسرتنا، وسيقلِبها رأسًا على عقب لسنواتٍ تتبع. مُنذ ذلك اليوم ما زلتُ أذكرُ حتّى هذه اللحظة، وما زال المشهد حاضرًا بذاكرتي، عيون والدتي تتبَعني وتلاحقني أينما ذهبتُ، وقد ملأها الكثير من الذهول، وعلامات استفهام، وقلق، وتمتمة شفاه، لم أتمّكن من فهم ما كانت تقوله، علَّها كانت تُحدِّث نفسَها، أو تخاطبني، ولم أتمكّن من سماع ما إذا كانت توجّهُه لي؛ بسبب ارتفاع أصوات الحضور، وأجزمُ أنّها كانت عهودًا التزمت بها، أو رسائلَ تطمينٍ لي وشقيقي التوأم، بأنّ الأمور ستكون على ما يُرام، وأشهدُ أنّها قد بَرّت بها جميعها، ولم تخلف يومًا عهدًا أو التزامًا قطعتهُ على نفسِها، وأؤكّد أنّها كانت آخر مرّةٍ

(1) نائب أمين عمان (2006-2011)

شهدتها في حالة ضياعٍ أو فقدانٍ للتوازن، ولا أذكر بَعدها أنها كانت لا تعلم ما هو المطلوب منها، أو إلى أين تتّجه البوصلة، أو خانتها مهارات الإبحار بأُسرتنا إلى شاطئ الأمان، بالرّغمِ من فداحة الخسارة، وحسرة الفقدان، لوفاة الوالد، اللذينِ لازماها لعقودٍ طويلة.

ما إن مرّت أيام العزاء حتّى بدأت حياتنا بالانتظام، وعاد ثلاثةٌ من إخوتي، وانتظموا في دراستهم الجامعية خارج الأردن، وكذلك من تبقّى منّا على مقاعد الدراسة الابتدائية والثانوية. ولا أذكر أنّ والدتي غادرت المنزل قط، وذلك لفترة زمنيّة طويلة زادت على عام، وقد توشّحت بالسّواد، ليحلَّ محلّه اللون الرماديّ بعد عامين، وما زلتُ أذكر صوت المُسجّل الذي لم يخلُ يومًا في منزلنا من تلاوةٍ للقرآن الكريم، ولأكثر من عام، فقد كان ربيع القلوب، ونور الصّدور، هدىً ورحمةً، بصوت المُقرئ المُحبب لقلبها، الذي كان يخاطب وجدانَها آناء الليّل وأطراف النهار، وأذكر حينها أنّنا نِلنَا من عطفها وحنانها ورعايتها واهتمامها ما يخفّفُ من فداحة المصيبة، ويُعوّض فقدان الأب، ويطوي ما مررنا به من محنةٍ استثنائية.

هذا كان حدثًا فاصلًا في حياتي، كما كان لأُسرتنا، فقد كانت الحياة مُستقرّةً ومنتظمة قبْلَهُ، وما إن فقدت ربّانها وعنصر استقرارها، تحمّلت الوالدة المسؤوليّة، وكانت خير من تحمّل، فعضّت على الأحزان وارتقت فوق الجراح، وأخردت من قسوة التجربة سكينة، ومن التحدّيات فرصًا، ومن المأساة طمأنينة، ولا أذكر يومًا قضيةً أو مُعضلةً إلا ووجدت لها الحلّ.

لم تكن تلك التراجيديا الوحيدة في حياتها التي وُصفت بالقاسية، ابتداءً بفقدانها الأب في طفولتها، وفقدان الشقيق القرين الذي يكبرها مُباشرةً في صباها، وفقدان الزوج في مقتبل عمرها وشبابها، وتركها وحيدةً تتحمّل مسؤوليّة أسرةٍ من ستّة أبناء، أكبرهم في التاسعة عشرة من عمره، وآخرها في شيخوختها قبل أقلّ من عام، محنة فقدان بِكرها، شقيقي الأكبر مازن رحمه الله.

سيرة حياتها ملحمةُ تضحيةٍ ونبع عطاء، عرفها كلُّ من عاصرها، وخَبِرها كلُّ من تعامل معها، وقد شكّلت نموذجًا يُظهر لنا كيف يكون الإيمانُ بالقدر؛ ليتخذ من حياتها قدوةً وعبرة، ناهيكم عما غرستْه فينا من أهميّة العلم والالتزام بالعمل، وأنّ مردوده المعنويّ أهمّ من المادّي، وأن يكون ذا رسالة وقناعة، وأنّ التقوى تجنّب الهلاك، والإيمان بأنّ اللهَ هو المُنجي، وبالأمل تستقيم الحياة، وأنّ الدماء لا ترخص إلا للأوطان، وأنّ ما قدّمته في حياتها للعمل الاجتماعي والإنساني التطوّعي، وللمرضى النفسيين وللمُسنين المتوحّدين ومنحدري الصّحة، والتزامها بالجمعيات والمراكز المتخصصة المُستدامة، والرائدة في رعاية المرضى والعجزة والمُسنّين.. ليس إلا محطّة من محطات عطائها التي فجّرتها المحن وأمضت عمرها وهي تسعى وتضحّي من أجل قناعاتها، ولم تبتغِ منها غير مرضاة الله، وما يمليه عليها ضميرها.

سأتناولُ جانبًا آخر هو دور «هيفاء البشير» في تجربتها في العمل البلدي، ومشاركتها في المجلس الوطني الاستشاري، ليس من وجهة نظر الابن، وإنما من وجهة نظر الخبير الذي مارس العمل البلدي، مُدّة ثماني سنوات، كرئيسٍ مُنتخب للّجنة المحليّة لمنطقة تلاع العلي، وتخلّلها العمل ستّ سنوات كنائبٍ لأمين عمّان، والمُطّلع على أنظمة الأمانة الداخلية وتشريعاتها النّاظمة، وأيضًا كعضوٍ مُنتخب في المجلسِ النيابيّ السابع عشر عن دائرة عمّان الثالثة، وكرئيسٍ للجنة النّقل والخدمات العّامة، مطبخ التشريع والرّقابة على عمل الحكومات لمدّة أربع سنوات، وأضيف:

لقد شاركت هيفاء البشير في مجلس أمانة عمّان ثماني سنوات من العام 1986 حتّى العام 1994، بدورتين مُتتاليتين بالتعيين، بعد أن عُيّنت في العام 1980 واحدةً من تسعِة أعضاء، كأوّل امرأة، والوحيدة التي تشارك في الحُكمِ المحليّ، فقد عاصرت عمّان إبّان أمانة العاصمة، لتشهَدَ لاحقًا انضمام مجموعةٍ من البلديات في مُحيط العاصمة ضمن ائتلاف مناطق عمّان، في ما تُسمّى اليوم أمانة عمّان الكبرى، التي انتقلت فيها عمّان من قرية

كبيرة إلى «متروبوليتان»، يضمُّ مجموعةً من المناطق يخطط لها مركزيًّا، وتدار عملياتها بالمناطق، فشاركت بعددٍ من اللجان المركزية، مثل لجان الحدائق والتسمية والترقيم وغيرها، وساهمت بتسمية مجموعةٍ من الشوارع لأعلامٍ من الأردنيّات، كرائداتٍ ساهمْنَ في نشأة الأردنّ وتقدّمه في قطاعاتٍ مُختلفة، أمثال عندليب العمد، ويسرى صلاح، وإملي بشارات، وغيرهنّ الكثير الكثير؛ إصرارًا منها وعرفانًا وتقديرًا لدور المرأة كرائدة ومشاركة في الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعية.

كما أنّ هيفاء البشير، شاركت في عمل اللجان المحليّة في كلِّ مناطق العبدلي ورأس العين وغيرها من لجان المناطق، وداومت على حضور اجتماعاتٍ أسبوعية لقرارات ترخيص أبنية ومِهَن، والمصادقة على مُخططاتٍ تنظيمية التزمت فيها بمُتطلبات مجتمعاتها المحليّة، تبعًا لخصوصيّة كلّ منطقةٍ على حده تحقيقًا لحاجاتها التنموية.

كما شاركت هيفاء البشير في عضويّة المجلس الوطنيّ الاستشاري في نسخته الثالثة من عام 1982-1984، وضمَّ في عضويته 75 عضوًا، من ضمنهم أربع سيداتٍ، كانت هيفاء البشير إحداهنّ، ويجدر بالذكر أنّ المجلس الوطنيَّ الاستشاري لم يكن بديلًا عن الحياة البرلمانية الانتخابية التي دَرجَ عليها الأردن، فأعضاؤه جاؤوا عن طريق التعيين وليس عن طريق الانتخاب، ولم يكن لهم الحقُّ في استجواب الوزراء، أو طرح الثقة بالحكومة أو بأحدٍ من الوزراء، بل مهمّتهم الرئيسية سدُّ الفراغ الذي نشأ عن تجميد النشاط البرلمانيّ الانتخابي، حين صدر قرار الاعتراف بمنظّمة التحرير الفلسطينية كممثّلٍ شرعيٍّ ووحيد للشعب الفلسطيني، نتاج انعقاد مؤتمر القمة في الرّباط عام 1974، وكان من إفرازات القرار إجراء تعديل على الدستور الأردنيّ، يُعطي الملِكَ الحقَّ بتأجيل الانتخابات النيابية بشكلٍ مطلق، وتبعَ إجراء التعديل تعليق الحياة النيابية في الأردن.

لقد أثبتت هيفاء البشير من خلال تجربتها في المجلس الوطني الاستشاري قدرَتَها على التواصل مع المواطنين، وعلى طرح قناعاتها بجرأة، والمساهمة في الحراك التشريعي،

والاحتكاك المباشر بالواقع، ومعرفة المشاكل الحقيقية كقاعدة للانطلاق للإصلاح والنهوض والتقدّم، واستطاعت أن تطالب بحقوق المرأة والفئات المهمشة، وأثبتت أنها على مُستوىً عالٍ من الثقافة والمعرفة، وبرهنت أنّ مشاركة المرأة إلى جانب الرجل في ظلّ شراكةٍ تكامليّةٍ تبني الوطن ومؤسساته.

كانت الوالدة بمثابةِ هديّة السّماءلأسرتنا؛ لأنّهاعرفت كيف تُنشئ أسرةً مُتحابّةً ومُتعاونة.. تجرّأت لبيع الأُصول والمصاغ، وعرفت كيف تستثمره في التعليم العالي لأبنائها، وهي على درايةٍ بكيفيّة إنشاء مشاريع اجتماعية ذات أبعادٍ إنسانية، وكيف توفّر لها الاستدامة. وهي تعلم متى تتراجع عن الموقع الأوّل في المؤسسات التي أسَّستها لصالح دماءٍ جديدةٍ شابّة، مثلما تعلم علمَ اليقين أنّ «اللُّقم تدفع النّقم»، وأنّ الله خير الحافظين.. وأشهدُ أنّ أبانا أحسنَ الاختيار.

هيفاء البشير.. عبق من جبل النار

سارة بركات [1]

تحية محفوفة بعبق جبل النار «نابلس»، مسقط رأس من نحن مجتمعون لتكريمها على ما قدَّمته خلال مسيرتها من عطاء ورعاية لكل متعثرٍ في مجتمعنا.

ابتداءً من مسيرتها العطرة وأياديها البيضاء كبياض ثوب الملائكة الذي ارتدته فترة عملها الإنساني في مهنة التمريض، فقد انتسبت عام 1979 لكلية التمريض في الجامعة الأردنية، ولعلَّها الحالة الوحيدة في تاريخ الجامعة التي تم قبولها بشهادة «المترك» عِوضًا عن شهادة التوجيهي، وحازت على البكالوريوس عام 1983 وكانت الأولى على دفعتها.

قال رسول الله ﷺ:

«من سنَّ سُنَّةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء».

اليوم أقف أمامكم لتكريم الإنسانة الجميلة خَلقًا وخُلُقًا والتي استطاعت من خلال إنسانيتها وشخصيتها المُحبَّة وعطائها اللامحدود أن تَسُنَّ قدوةً حسنة يقتدي بها الصغار والكبار رجالًا ونساءً.

ولعلَّ سيرة السيدة هيفاء هي بصيصٌ، لا بل بريق الأمل الذي نفتقده في زمنٍ حلَّ الظلام والظُلم فيه، لتذكِّرنا بأنَّ الخير هو ما يجمعنا، وأنّنا جميعًا قادرون على العطاء؛ ففي بساطتها وصدقها وعفويتها تفجّر فينا «أم مازن» أسمى المشاعر وأوَّلها الرغبة الصادقة في تقليدها ولو بالقليل. تفجّر فينا الأمل بأنَّ فعل الخير لا يقتصر على زمنٍ جميل، بل هو ما يُجمّل

(1) رئيسة جمعية مشاغل تأهيل الفتيات/ بيت لحم.

زمنًا قسا فيه القدر ليسلب من البعض عزيمة العمل على فعل الخير وتقديم العون والمساعدة لكلِّ من هو بحاجة إليه.

يُقال إنَّ «فاقد الشيء لا يعطيه»، ولكنَّ السيدة هيفاء بمسيرتها العطرة المليئة بالعطاء، وإنكار الذات والتضحية أعطت لكلِّ من حولها ما كانت هي بأمس الحاجة إليه، وتقديرًا لمسيرتها المعطاءة في خدمة المجتمع الأردني حازت على عدة شهادات تقدير وأوسمة، لكنها تعتزّ بتقليد جلالة الملك عبدالله الثاني لها وسام الحسين للتميّز عام 2007.

ويسرني أن أذكر وبفخر أبرز إنجازات المحتفى بها السيدة هيفاء البشير:

فقد أسست جمعية الأَسرَّة البيضاء بالتعاون مع سيداتٍ من المجتمع الأردني عام 1971، وهي الجمعيّة التي كانت اللبنة الأولى في العمل التطوعي، فقد انبثق من جمعية الأَسرَّة البيضاء دار الضيافة للمسنين لتوفير الرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية لهم.

كما أنشأت منتدى الرواد الكبار، وهو مَعْلَمٌ اجتماعيٌّ ثقافي، وملتقى لسيدات العمل الاجتماعي التطوعي برئاستها.

ختامًا، اسمحوا لي بأن أتقدم بالشكر والعرفان لمؤسسة عبد الحميد شومان على مبادرتها وإنجازاتها الثقافية والاجتماعية وعلى إقامتها ورعايتها لهذا الحفل الكريم، كما وأتقدم بجزيل الشكر والتقدير لجميع الحاضرين في هذا الاحتفال لتكريم السيدة الفاضلة والأم المعطاءة والابنة البارّة لمجتمعها بشكل خاص وللإنسانية بشكل عام، وهي السيدة الرائدة هيفاء البشير حفظها الله.

حضور عربي وأفكار مستنيرة

إبراهيم السواعير [1]

وأنا أقف على منصّة الاحتفال يوم توزيع جائزة الأسرة العربيّة في الشّارقة، كنتُ أشعر بالزهو والعزّ والفخار بأنّ امرأةً في بلدي تقف الآن لتتسلم مثل هذه الجائزة الرفيعة، فتصطفّ وراءها كلّ الأيّام الصّعبة والمنجزات الراسخة والباقية للأجيال.

إنسانة نذرت عمرها للآخرين، وها هي الآن تحلّق مثل غيمةٍ فوق سماء الوطن العربي، لتمطر حبًّا وتجارب راسخة. امرأة نبتت في صوّان من جبال نابلس لتحطّ على ذرى مدينة السلط، كاتبةً في كلّ خطوة من حياتها قصّة نجاح.. إنّها هيفاء البشير.

حين كنتُ أحاورها حول ذهنية المجتمع ونظرته لعمل المرأة، وهل كانت طريقها معبّدةً لتشارك في الحياة العامّة، أطلقت هيفاء البشير ناظريها بعيدًا في أزمان مليئة بالتحدي والصبر والدأب، أولًا على خوض المغامرة، مغامرة التأثير في هذه الذهنيّة وحفز المرأة لتنطلق من حالة الجمود المجتمعي والتصنّم الذي بلغ في فترات ماضية حدّ عدم النموّ والاقتصار على القليل القليل مما هو سائد، وما رُسم لها من دور لا يمكن أن يتناسب مع عطائها الإنساني غير المحدود.

وثانيًا أنّ هذه الجرأة ما كانت في الواقع لتؤسس في ما بعد لأجيال ونساء تبوأن في مضمار العمل المؤسسي مناصب مهمّة، لولا أنّ لمعة القيادة والريادة والعطاء كانت تتوقّد في وجدانها وعقلها لتقتحم السائد وتحرّك الماء الساكن السّاكت عن قصور وضعف هذا الدور، فكان أن ذهبت تدرس وتشارك وتدخل غمار العمل القيادي، وتتفهّم مرحليّة تغيير

(1) أديب وصحفي.

ذهنية المرأة وحفزها على الثقة بالعطاء والمشاركة، ولهذا، فإنّ لدى البشير حافزين لبلوغ هذه الشهرة، وهما أنّ قلبها لم يكن معطّلًا، وكذلك دماغها، فكلاهما يحثّها على أن تقدّم وتعمل وتربي الأسرة الخاصّة وتعطف على الأسرة العامة المريضة في المجتمع، والحقيقة أنّ امرأةً تجد من زوجها الوزير والشهيد المرحوم محمد البشير دعمه ومساندته وتنطلق في رحاب التطوّع وتنفيذ الأفكار الخيّرة لهي جديرةٌ بأن نقرأها بعين إنجازاتها وفكرها وروحها العذبة ودأبها في هذه الرحلة أو المشوار من العطاء.

إحساس إنساني

في الواقع الكتابة عن هيفاء البشير تتعدد، وتتكامل أيضًا في حقول تحتاج إلى قراءة موسّعة، ففي ميدان الطفولة لها حكايات وذكريات كفيلة بأن تصنع منها الإنسانة والمبدعة والكاتبة، وصاحبة الإحساس المرهف الذي وجَّهها إلى العمل الخيري والتطوعي، وفي مجال الأدب لها قصصٌ مع الطفل وقراءة للمكان من خلال حواراتها مع حفيداتها وأحفادها، وفي مجال العمل الإنساني أيضًا، ما تزال جمعية الأَسرّة البيضاء تعطي ثمارها بعد أن وضعت أول مداميكها، وفي حقل الحضور الأدبي والثقافي ها هو منتدى الرواد الكبار، كتجربة مُهمة أثرت الفكر والأدب والفن والثقافة والمعرفة، والمجالات كثيرة، ولكنّي سأتطرّق إلى ما بدأتُ به الحديث في سياق حضور هيفاء البشير على المستوى العربي، والأجنبي أيضًا، وأعتقد أنّ هذا الحضور يتواصل مع الجوانب الأخرى الإبداعيّة لديها، وأبدأ بالحضور الإعلامي والاهتمام العربيّ الأحدث في جائزة صاحب السّمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى لاتحاد الإمارات حاكم الشارقة، إذ كتبت الصحف الإماراتيّة والعربية عن تكريمه للسيدة هيفاء البشير- مُنظّمة الأسرة العربيّة، وفوزها بجائزة هذه المنظمة، فقد كانت السيرة العطرة تُضاف إلى المشوار

الحافل في تكريمات عربيّة ودوليّة سابقة سنأتي على ذكرها في هذه الإطلالة المتفرعة على أكثر من موضوع.

بين السطور..

وقد كنتُ، وأنا أقرأ السيرة العطرة لهيفاء البشير، أحاول بصفتي صحفيًّا وأديبًا أن أقرأ ما وراء السطور التي تشير إلى فوزها، ومشاركتها أو حضورها وتأسيسها وما إلى ذلك من العلامات الفارقة والواضحة لمشوارها. لذلك لم أجدني إلا وأنا أحاور السيّدة هيفاء البشير بحضور القاصّة والكاتبة القديرة سحر ملص، المستشارة الثقافية في منتدى الرواد الكبار ومؤلفة القصص الرائعة التي تشفّ عن آفاقها ورومانسيّتها في الكتابة واستبطان حياة الناس والمكان، بل أيضًا مؤلفة كتاب «هيفاء البشير: تجربة وحياة»، الكتاب الذي حمل عذوبة الكاتبة والمحتفى بها في مراحل الطفولة وأوراق الماضي، ومراحل الخطوبة والزواج، والانتقال من نابلس إلى عمان، والأمومة وبذور العمل التطوعي، وعملها في الاتحاد النسائي العام، وعضوية مجلس أمانة عمان والمجلس الوطني الاستشاري ومجلس الصحة العالمي، وعلاقتها بالفن والثقافة والأدب والكتابة، وانتظامها في كلية التمريض.. والكثير من المحطات الشفيفة من حياتها. أقول إنّ حوار السيدة هيفاء البشير بوجود أديبة مثل سحر ملص، أعلم مسبقًا شغفها بطقوس الكتابة والخيال الجميل، جعلني أحاول أن يكون الحوار غير تقليدي في التعداد أو استعادة الأزمان، ولذلك فقد كان سؤالي حول هذا التطواف العربي من واقع العمل المؤسسي والاتحاد النسائيّ والظروف الطارئة التي قد تكون عطّلت بعض المشاريع الطموحة لدى هيفاء البشير في بلداننا العربية بسبب هزّات السياسة والحروب، ومدى أهمية الدور الكبير الذي تبذله البشير في زمن قديم لتكون شمعةً تستهدي بها بنات جيلها وتشاركها النساء القليلات والطموحات في تكريس دور المرأة

الأردنية وإظهاره، لأنّه بالفعل سينعكس على المجتمع ككل وعلى تطوير موقف المرأة الساكن أمام كثير من أمور المشاركة.

جهود عربية وتحديات..

تقول البشير إنّها كانت على رأس وفد من قِبل الاتحاد النسائي العام تحت اسم «مساعي حميدة» توجّه إلى سورية، بمشاركة مع نساء قياديات خليجيات وعربيات، وكانت سعيدةً جدًّا بالفكرة، إلا أنّها ومع زيارتها لكلّ المناطق الرائعة في سورية، كان هناك متغير جديد يدخل على الساحة وهو غزو العراق للكويت، فانتهى الموضوع على أحزان الفكرة التي توقفت أو تعطّلت بسبب هذا الحدث.

وتذكر البشير أسماء عديدة من النساء اللاتي شاركنها العمل التطوعي في الاتحاد النسائي العام، ومن الكويت أيضًا، وهذا معناه أن استقرار الدول والشعوب في الواقع، دائمًا ما يكون سببًا في نجاح التواصل والتفاهمات الإنسانيّة، في حين أن الحرب تعطّل كلّ ذلك فجاةً ودون سابق إنذار.

وللبشير في دول مثل السعودية أيضًا حضورها الكبير في النشاطات التطوعيّة والمشتركة، وهي اسمٌ بارز هناك ورأيها مهم في أفكار إنسانيّة لرعاية المسنين وكبار السّن، أمّا في الإمارات فقد فازت بجائزة الأسرة العربيّة التي كان أعلنها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حاكم دبي، وقد فازت السيدة هيفاء البشير وسط منافسات قويّة من نساء عربيّات في هذا المجال بواقع 500 أسرة من شتى بلدان العالم العربي، لتأخذ الجائزة الأولى تحت مسمى جائزة مهرجان دبي للأسرة العربية المثالية، وسط فرحة العائلة الصغيرة والعائلة الأردنية والعربية الكبيرة بهذا الإنجاز في حفل تسليم الجائزة الذي شهد حضورًا كبيرًا في ذلك الوقت من عام 1976.

تستذكر السيدة البشير في الفترة ما بين 1981-1990 أنّ رئاسة الاتحاد النسائي العربي كانت في العراق، وأنها كانت رئيسة الاتحاد النسائي الأردني في ذلك الوقت، مستعيدةً نشاطًا ملحوظًا تسَمَّتْ خلاله في إحدى اللقاءات في لجنة مهمّة بشخصياتها المعروفة، وهي لجنة متابعة آثار حرب الخليج التي كانت عضوًا فيها في اجتماعات متعددة في جنيف ولندن وأماكن أخرى.

وفي البحرين كذلك، كان للبشير حضورها الكبير مع شخصيات مثل الشيخة لولوة آل خليفة المشهود لها بالعطاء والدافعية والإنجاز، وهكذا، فقد كان لهذا الحضور أثره الكبير في الخبرة والعطاء من خلال الاتحاد النسائي الأردني بطبيعة الحال، ذاكرةً أنها شاركت في مؤتمر لثلاثين ناديًا كان الوفد الأردني هو الوحيد فيه الممثل للعنصر النسائي، لافتةً إلى مشاركة الناشطة الاجتماعيّة السيدة ميسون العرموطي أيضًا. وتستذكر السيدة هيفاء البشير أنّها قدّمت ورقةً وطرحت خطابًا مهمًّا حول أسس النجاح في مجال ذلك المؤتمر، وحصلت على تكريم وجائزة آنذاك. أمّا المغرب العربي فتشير البشير إلى زيارتها المغرب وتونس وما قدّمته من أنشطة فاعلة في عمل المرأة، وتذكر أيضًا مشاركتها في نيروبي حين ترأست الوفد الشعبي والرسمي إلى هناك. وتذكر كذلك مؤتمرات أجنبية للمرأة في الأمم المتحدة، وكذلك تقديمها ورقةً في الجامعة الأميركية ببيروت، في مشاركة تتعلق بموضوع الموروث الشعبي، ففي لبنان كان للبشير حضورها القوي أيضًا في مركز التفكير الإبداعي وقوّة التأثير نحو قيادة التغيير، وقد قدمت في هذا المؤتمر ورقةً أو شهادةً إبداعيّةً تحت عنوان «المرأة العربية ودورها في بناء المجتمع السليم: هيفاء البشير نموذجًا».

وفي السودان كذلك كان لها ذكرياتها العطرة، ففي سنة 1976 كانت حاضرة أيّام حكم جعفر النميري، مستذكرةً في ذلك الوقت صديقتها في السودان عضو الاتحاد النسائي العربي نفيسة الأمين الأستاذة في اللغة العربية، معتزةً بدور هذه الإنسانة وتأثيرها على مجتمعها في الفكر والثقافة والسلوك الاجتماعي.

ذهنية المرأة العربية

أمّا جائزة الشارقة، فتراها البشير تكريمًا طيبًا يحفزها على العطاء المتزايد وبذل الجهود في مجال عملها. وفي المقابل كانت للبشير مشاركات دوليّة، في الولايات المتحدة وفي برلين الشرقية وكذلك كوبنهاجن ثم نيروبي فبكين، لافتةً إلى لمسة الأمم المتحدة التي ساعدت بتعزيز دور المرأة العربية في العالم.

وقد سألتُ السيدة هيفاء البشير بعد كلّ هذا التطواف: كيف تقرئين ذهنية المرأة الأردنية والعربية بوجه عام عقب هذا الخضمّ الكبير من الإنجاز والعطاء؟! وأمام أعراف مجتمعات كانت ترى في عمل المرأة عيبًا أو أمرًا محرّمًا في فترات وعقود سابقة؟ فكانت إجابة البشير التي عاصرت أوائل حركة المرأة أثناء انغلاق هذه المجتمعات، أنّ الظروف لم تكن مساعدةً على الإطلاق؛ إذ كان ممنوعًا على المرأة الاختلاط مع الرجل، مستذكرةً قصصًا اجتماعية في الخمسينات تحرّم على المرأة أن تقيم خارج البيت للتحصيل العلمي، وبالمقابل فقد اتجهت هي بعد أن تجاوزت الأربعين من عمرها للدراسة في الجامعة، في نوع من المقارنة حتى في ذلك الوقت، إذ كان والدها قد توفي، وقد كانت الأمور في السابق صعبةً جدًّا، فلم يكن هناك دراسة للتمريض بحجة الاختلاط، فكانت المشاركة والآمال مسدودة، وفي هذا المجال تعيد البشير الفضل بعد الله لزوجها الراحل الوزير الشهيد محمد البشير الذي كان يفتح لها الطريق ويمدّها دائمًا بحكمته ورؤيته الحضاريّة والواثقة بمقدرة المرأة على الإسهام في كلّ مجالات الحياة، وهي نظرة متقدّمة ورائعة منه في خضمّ ظرف صعب في ذلك الوقت.

شخصية قيادية

في الأثناء كانت تحضر حواري مع السيدة هيفاء البشير، السيدة ميسون العرموطي التي كانت تنشغل نوعًا ما بأوراق جمعية الأسرة البيضاء لتطّلع عليها البشير، خصوصًا

والعرموطي هي رفيقة حميمة وصديقة قديمة لهيفاء البشير في العمل التطوعي والنسائي، وقد أبدت العرموطي إعجابًا كبيرًا بشخصيّة البشير الهادفة والنوعيّة والكبيرة وتصميمها على النجاح وراء هذا الكسر لحاجز الخوف والتقهقر، بعيدًا عن المشاركة بسبب دافعها وحافزها الكبير وراء ذلك.

حوار الأجيال

قلتُ للبشير، حين تطرّق الحوار إلى فضائها الإنسانيّ: أنتِ تكتبين للطفولة والأجيال الجديدة كتابةً تدلّ على مراسك مع الأدب، وأنت عضو اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين، ولك كتابات عن سيرة حياتك، فكيف استطعتِ أن تصنعي حوارًا بين الأجيال عن طريق الكتاب الورقي و«الآي باد»؟ بمعنى آخر الحوار بينك وبين حفيدتك سما، بطريقة جميلة ومحببة وفيها شذرات إنسانيّة لطيفة من حكمتك وتجربتك مع الحياة، لطفلة تحاول أن ترى هذا العالم الجميل بمحبة ودفء وصدق وبراءة وفرح عارم بمكتسبات هذا العصر التكنولوجيّة؟!

وقد كانت إجابة السيدة هيفاء البشير أنّ هذا العصر له ظروفه، وأنّ الأطفال هذه الأيّام والأحفاد يعيشون حياةً أفضل، مقارنةً مع ذلك الزمان وضرورات الاعتماد على الذات وتجاوز الصعاب في الوقت الماضي بكلّ ما فيه من أحزان وتعب ومشقّة، خاصةً للمرأة والنظرة العامة لها، لذلك فإنّ ما حاولتْ أن تبثّه إلى حفيدتها كان عبارة عن نصائح غير ثقيلة لتسير في حياتها واثقةً، وقد اعتمدت على زادها الثقافي الذي تكتسبه من أهلها، فالتحديات كما ترى السيدة البشير ربما تكون في أنواع ثقافيّة جديدة علينا أن نفهمها وأن يكون أبناؤنا أكثر وعيًا فيها. أمّا من الناحية الفكرية والثقافية فقد حاولت البشير أن تبوح بشيء من آلام ذلك العصر وفرحته أيضًا في طفولةٍ، صحيح أنّها كانت تسير فيها مسافات طويلة مشيًا على الأقدام، لكنّ أيّ طفلٍ كانت تتملّكه الفرحة بطفولته، لا فرق بين غني

وفقير، شقي وسعيد، فالطفولة كما فهمتُ من حديثي مع البشير هي عالم للشخص نفسه، وهي القصة أو الحكاية الأولى مع الحياة يظلّ يرويها المرء لمن يأتون بعده مدى الحياة.

وقد أثّرت البشير فعلًا في أحفادها بالكلمة الطيبة والنصيحة غير الثقيلة ومراعاة ظروف هذا العصر ومعطياته التكنولوجيّة، ذاكرةً أنّ حفيدتها دينا عوني البشير التي تخوض الانتخابات هي خريجة الجامعة الأردنية ثم بريطانيا في الماجستير!

الثقة باللَّه..

مهما قلنا عن السيدة البشير يظلّ الكلام في الحقيقة قليلًا وغير قادر عن الوفاء لسيدة كان شعارها دائمًا مواصلة الدرب والتعب والنّفَس الطويل في معالجة الأمور.

ويبدو أنّ هذه السيّدة التي آمنت بقضاء الله وقدره وصبرت على حُكْمه وهو القادر المتصرف في الأمور وشؤون الكون، لديها إيمان عميق بالله وثقة كبيرة بتوفيقه وما يمدّها به من صبر، حتى مع رحيل ابنها البكر الدكتور مازن البشير في حادث سير قبل مدّة بسيطة، مستذكرةً والده الوزير الدكتور محمد البشير الذي قضى شهيدًا في زمن بعيد، وهذا في الواقع أمرٌ محزن تتغلّب عليه هذه السيّدة بالصبر الذي هو هبة الخالق لمن يحبهم ويبتليهم، لذلك فإنّ العطاء الإنسانيّ لديها يتوزّع من قلب رحيم بالناس استمدته من هذه الثقة العالية بالله، خاصةً وهي تجد كما أخبرتني في القرآن الكريم راحةً واطمئنانًا وتخفيفًا عن الفقد وأحزان الأمس واليوم.

المنتدى.. والرواق

هيفاء البشير التي وجدت نفسها في العمل الإنساني والخيري والتطوعي، صنعت من منتدى الرواد الكبار بيئةً خصبةً للفكر والثقافة. وقد جعلته منبرًا حضاريًّا يرتاده كل المثقفين والمبدعين والإعلاميين، وقد كانت وما تزال أنشطة هذا المنتدى حاضرةً كهيئة

ثقافية لها منافذها على نشاطات وزارة الثقافة. وقد جاء المنتدى بدعم من أمانة عمان، وهي الآن على وشك تأسيس رواق أردني مميز في المنتدى تحرص على أن يكون الحضور الأردني فيه ملموسًا من خلال هذا الرواق أو المتحف الذي سيقف على رجليه بعد الانتهاء من الدراسات الضامنة لنجاحه، ليغطّي 22 محطة أردنية تروي ذاكرة الأجيال وتراثهم وأزياءهم وآثارهم وتحافظ عليها من النسيان.

في سؤال السيدة البشير، عن مدى رسوخ الثقافة العربية الإسلاميّة في نفس المرأة الأردنية والعربية اليوم، تؤكّد أنّ الهوية لا تنفي التقدم والتطوّر والتشاركية والتحرر من الخوف أمام هذه المشاركة، لافتةً إلى أنّ القرآن الكريم فيه ثقافة كبيرة علينا الاتعاظ بها وفهمها الفهم الوسطي الصحيح والمعتدل لتستمر الحياة، فهو يحثّ على العلم والبناء دون تعصب وانغلاق أو نظرة أحادية سلبية للآخرين والأديان الأخرى، فالدين هو فطري وهو مرآة لعلاقة الإنسان بربه في سلوكه القويم واحترامه لمشاعر الناس والعمل بالقانون وفهم الآخر، وكلّ ذلك يشكّل الطريق الصحيح نحو رضا الله وتوفيقه.

من جهة أخرى، تؤكّد البشير اعتزازها الكبير بجهود جلالة الملك عبدالله الثاني للأردن والإنسان والعطاء، خاصةً وهي الحاصلة على جائزة الملك عبدالله الثاني للعطاء المتميز عام 2007، في سياق احتفالات الأردن بعيد الاستقلال، فجلالته شخصيّة فريدة، وهو يمتلك رؤيةً جادةً، وقد عمل على نقلة نوعية وحضاريّة علمية وتربوية للوطن والأجيال، من خلال تأكيده أهمية الاطلاع على الثقافات وأوجه التطور التكنولوجي بعد الألفية، وها نحن نسير في ظلّ هذه الرؤية الواثقة لجلالته حفظه الله ورعاه.

لا تحبّ الأضواء

في الواقع، لا تحبّ السيدة هيفاء البشير الأضواء كثيرًا بالرغم من كلّ ما تقدّمه من جهود، خاصة في مجال دار المسنين التي يصل عمرها إلى أربعين سنةً بعد أن أسستها

البشير وتشتمل على مئة وثلاثين نزيلًا غير مقتدر ومنحدر الصحة ومتوحد، وتقول في هذا المجال إنّ جلالة الملك كان الداعم الكبير لهذا المشروع الإنساني، وهو الحافز والدافع لكي يكون هذا المكان مؤهلًا لعمله المهم والنبيل، كما تؤكّد جهود جلالة الملكة رانيا العبدالله في اهتمامها الكبير بالتعليم وشؤون الأسرة محليًّا وعلى الصعيدين العربي والعالمي.

رسالة حقيقية

في ختام هذه الجلسة في مكتب السيدة البشير بمنتدى الرواد الكبار، وبينما المثقفون ذاهبون آيبون والمنتدى خلية من النشاط والعمل والتواصل مع جمعية الأسرة البيضاء، وأيضًا التباحث حول آخر مستجدات المشهد الثقافي في الأردن. توجّه البشير رسالة حقيقيّة إلى المرأة الأردنيّة بأن تكون جادةً في مشاركتها المجتمع في كلّ شؤون الحياة، فهي عنصر فاعل في الأسرة والوظيفة والبرلمان والتعامل اليومي، وليست منعزلةً أو ترتد إلى أزمان سحيقة في هذا المجال، وعلى المرأة الأردنية أن تعي أنّها في وطن يمنحها الحرية ويكفلها لها ويؤمن بدورها في الحياة العامة، فالعمل ليس منوطًا كما تقول بعمر معيّن، مُذكّرةً أنّها دخلت الجامعة الأردنية وكان عمرها قد تجاوز الأربعين وذلك بعد أن تخرّج أبناؤها من الجامعة، فالعمل عبادة وشعور بتحقيق الذّات، والثقافة أكبر حافز ليكون في قلبنا متسعٌ للعمل التطوعي والخيري ومساعدة الناس.

مؤسسات من وحيها وبجهودها

هيفاء البشير.. سيدة المصباح الأردني

سحر ملص [1]

في كل مرةٍ أقف مع ذاتي وأنظر في مرآة السيدة هيفاء البشير لأبحث عن مكنونات نفسها ودافعها في الحياة لتسطر هذه السيرة العطرة الطيبة، أجد بأنَّ كل الدوافع والمؤشرات تشير إلى معدنها النفيس المجبول بالطيبة والإنسانية؛ إذ تبدو جذور هذه الشخصية راسخة في أعماق الطفولة، وحين نراها كلما تلقّت طعنة من القدر ازدادت همةً وعنادًا وصلابة، بالرغم من انثنائها على جُرحها، بل جراحها الكثيرة.

إنها الهيفاء تلك التي ولدتها مدينة جبل النار.. عمدتها بمياه نبع القريون وعين العسل، ملأت قلبها بالمحبة، فالطفلة اليتيمة التي فقدت والدها صغيرة، امتلأت حياتها بالجدية والعمل المثمر، فهي من منبت طيب جعل من أمها وأخيها حضن الحنان الذي احتواها.

لكنَّ الطفلة مسكونّةٌ بالخير وحب العمل؛ إذ نرى ملامح ذلك في طفولتها حين كانت تقوم بجمع التبرعات للطالبات الأقل حظًّا في المدرسة، فكيف لهذا القلب الصغير الذي تفتَّحت براعمه على الحياة ألّا يرأف بمن حُرموا نعمة المال؟!

طفلة تعيش ما بين الحلم والواقع لتصنع أسطورة حياتها، فما بين الغيم كانت تخبئ أحلامها، وتحت قرص الشمس تسطّر خطواتها، وفي قلبها عزيمةٌ وإرادةٌ تشبه في صلابتها صخر الصوان.

ربما كان للقدر يدٌ ترسم لنا بعضًا من سطور حياتنا القادمة، فالطفلة التي كانت دربها طويلة ما بين البيت والمدرسة تختصره عبر مرورها في المقبرة التي تُلقي على موتاها

(1) المستشارة الثقافية في منتدى الرواد الكبار.

السلام، وتستقي عبرة من قِصَر الحياة ومصير الإنسان، وحين تنتهي المقبرة وتتابع سيرها يتمثل لها ذاك الرجل الأبيض الذي يرتدي ملابسه البيضاء وحذاءه، ويمتطي فرسًا شهباء حاملًا مظلته التي تشبه غيمةً في بياضها.

كلُّ ذلك يرسم في وجدان الطفلة حكمةً مفادها أنَّ رحلة الحياة قصيرة والعمل يجب أن يكون ناصع البياض؛ إذ إنَّ لوحة الخلود لا تقبل على صفحتها إلا قلوبًا وهممًا بيضاء.

وتمضي الحياة لتستمر التحديات، فمن موت الأب إلى الدراسة والانتقال إلى دار المعلمات في القدس، لتأتي ضربة قرار التقسيم لفلسطين.

كلها محطاتٌ من الألم تصهر معدنها وتُذكي شعلة العزم فيها، وتفتح نوافذ الوعي على ما يجري في الحياة لتقسمَ ما بينها أن تحوّل الآلام إلى آمال والصخر إلى تبر.

فنجدها فتاةً ناضجة واعية تنضمُّ إلى حزب البعث بتشجيع من أخيها وتقوم بالتدريس في المدارس، وتبدأ بالكتابة تحت اسم مستعار في الصحف «فتاة عيبال».

هذه الشخصية المميزة ساهمت في لفت الأنظار، وجعلت من الدكتور محمد البشير ابن السلط الشماء الذي كان يبحث عن فتاة ناضجة تشاطره الحياة، يخطبها ويقترن بها، لتقطع النهر وتأتي إلى جبال السلط مُقسمة أن تخطَّ على جبالها أجمل قصة حب وعطاء.

وتنهمك في إدارة شؤون أسرتها، إضافةً إلى انخراطها في سلك التعليم كأول امرأة متزوجة في الأردن، ويتقلّب زوجها في العديد من المناصب، من مديرٍ للصحة إلى وزير، وتبدأ رحلة العمل المشتركة في تشجيعها على تأسيس جمعية الأَسرّة البيضاء لمساندة المستشفيات وتشجيع الفتيات على الانخراط في سلك التمريض.

وتمضي في مسيرتها حاملة على عاتقها فتح درب التمريض أمام الفتيات ومساعدة كبار السن وإيوائهم، لتأتي الضربة الثانية باستشهاد زوجها الدكتور محمد البشير، لتقف وحيدةً بلا معين تنثني مرة أخرى على جرحها، ثم ترفع رأسها على صوت أبنائها الستة يستنجدون بها كي تظلَّ سندًا راسخًا يتكؤون عليه في الحياة.

لتصغي إلى صرخة مُسِنٍّ يحتاج إلى عونها، فتدوس على جراحها الشخصية وتمضي قدمًا ملبيةً حاجات الآخرين ممن يحتاجونها، متناسيةً آلامها النفسية حاملةً مصباح الأمل لتضيء درب الآخرين، وتذكّرنا بالممرضة فلورنس نايتنجيل أول من وضعت أسس علم التمريض الحديث، وساعدت في حرب القرم حاملة مصباحها وسط الجرحى ليشعَّ نورًا عبر العالم.

إنَّ المتتبع لسيرة هذه السيدة لَيَتوقف عند عددٍ من الميزات الهامة في شخصيتها وكانت أركانًا لدعم مسيرتها؛ فمنذ البداية نجد جذور حب الخير ومساعدة الآخرين سواء من خلال جمع التبرعات المدرسية أو تأليف المسرحيات وتمثيلها ودفع ريعها لأعمال الخير.

كما نلاحظ أنَّ شجاعتها وتصميمها على التحاقها بالمدرسة العائشية بعيدًا عن حضن أمها دليلٌ واضحٌ على ما تتمتع به من الوعي وبُعد النظر، إذ نراها منذ شبابها قد انخرطت في حزب البعث وراحت تكتب في الصحف.

عندما قطعت النهر وأتت إلى السلط ذابت شخصيتها في مجتمعها الجديد ومنحته حبًّا؛ فهي المُدرّسة هناك وهي مُؤسسة جمعية الأَسرّة البيضاء في عمان، لذلك نراها دائمًا سبّاقةً تنظر إلى المستقبل، تستشرف ما فيه ثم تنظر إلى أجمل أشجاره المثمرة، فتأخذ بذورها وتزرعها في الحاضر، إلى جانب ذلك كله تستند إلى العلم والمنطق، فهي لا تسير بخطوات عشوائية وإنما تستقي الخبرة والمعرفة ممن سبقوها وتبني على ذلك وتزيد، لذلك بدأت بتشييد دار الضيافة للمسنين حيث سافرت مع وفد إلى أوروبا واطَّلعت على الدُّور المشابهة له، لتستفيد من الخبرة والتجربة. ولئن جاءت خدمة المسنين بإيعاز من دولة الرئيس وصفي التل فإن منتدى الرواد الكبار جاء استكمالًا لرسالتها ورسالة الجمعية في خدمة ورعاية كبار السن من القاطنين في بيوتهم، بعدما أنهوا رسالتهم في الحياة وباتوا يتكؤون على مساند الوقت، لذلك كان لا بدَّ من إيجاد نادٍ يجمعهم ويوفِّر لهم جوًا اجتماعيًّا وعائليًّا

وثقافيًّا، خاصةً أنَّ شيخوختهم قد امتلأت بالتجارب والحكمة، ما يعني إمكانية الاستفادة من هذه الخبرة الطويلة.

ويعتبر المنتدى رائدًا في فكرته وعطائه، فقد تأسس عام 2009 لتكون له الريادة في الأردن في تلبية احتياجات كبار السنِّ، إذ إنَّ خدمتهم واجبٌ وطنيٌّ وقِيميٌّ وديني، وقد تأسس ليكون ناديًا نهاريًّا يلتقي فيه الكبار مع أندادهم ليستمتعوا بأنشطةٍ اجتماعيةٍ ملائمة ثقافية وتوعوية وبرامج صحيّة وترفيهية ورحلات وطنية وخارجية.

وقد اعتمد المنتدى على وضع خطَّةٍ نصف سنوية تشتمل على جميع أنشطته الثقافية والاجتماعية والترفيهية، فيكون لدى العضو برنامجٌ يملأ حياته بكل ما هو مفيدٌ وثري.

وقد اهتمَّ المنتدى بإبداع أعضائه والنشاطات المتعددة، فكان أن أصدر مجلة الشرفة الثقافية الفصلية، لكنّها توقفت لعدم وجود تمويل لها.

وفي كلِّ عامٍ يُصدر كتابًا سنويًّا يشتمل على جميع نشاطاته المختلفة، ولا ننسى أبدًا فضل مديره السابق الشاعر عبدالله رضوان -رحمه الله- الذي أرسى دعائم البرنامج الثقافي فيه، ثم تابعنا على خطاه وجدّدنا، ولقد أصبح المنتدى بفضل الله منبرًا ثقافيًّا مميزًا، من خلال استضافته لعددٍ من الأدباء المحليين والعرب ضمن برامجه المختلفة، ورسّخ وسجَّل لعددٍ من شخصيات الأردن ورجالاته من خلال برنامج ذاكرة إنسان، وقام بعددٍ من اللقاءات والحوارات، وطرح العديد من المشاكل في حياتنا اليومية ضمن برنامج حوار الأجيال الذي يقدمه الأستاذ عصام الزواوي، وعمل على ترسيخ الهوية الوطنية من خلال برامجه المفيدة والمتعددة، مثل برنامج «ذاكرة مكان»، التي تكون إمّا بطواف أعضائه في مدن وقرى الأردن المختلفة أو استضافة من يتحدث عنها في المنتدى.

كما وضع المنتدى خطةً لاستضافة الرموز الثقافية من الأدباء والفنانين في مختلف مدن المملكة ضمن برنامج «أصالة مدينة»، للتعريف بهم والتعريف بتاريخ وتراث المدن، كما

أقام العديد من الأمسيات الأدبية الشعرية والقصصية وتوقيع الكتب من الإصدارات الجديدة.

وأقام أيضًا العديد من الملتقيات الثقافية مثل: ملتقى القصة القصيرة جدًّا، وملتقى قصيدة النثر بالتعاون مع جامعة فيلادلفيا، وملتقى القصة القصيرة، وهناك نشاطات ترفيهية تقام باستمرار، سواء الرحلات الداخلية أو الخارجية، كلُّ ذلك يجعل من حياة العضو حياةً فاعلة ثرية ثقافيًّا ومعرفيًّا.

وقد أُقيمت فيه العديد من المعارض الفنية لكبار الفنانين العرب والمحليين، وقام الأعضاء بزياراتٍ لعددٍ من بيوت الفنانين، ومما يحفز الأعضاء على العمل ومشاركتهم الفعلية في اللجان المختلفة في المنتدى مثل اللجنة الثقافية والاجتماعية والفنية.

ويضمُّ المنتدى قاعةً كبيرة للندوات ومكتبة وصالةً للمعارض الفنية وكفيتريا لتقديم الوجبات الخفيفة، كما يضمُّ حديقةً غنَّاء تقام فيها العديد من الأمسيات والسهرات الموسيقية والنشاطات المختلفة.

وفي العادة عندما يصل الإنسان إلى سنٍّ معينة يتوقف عن العطاء، لكنْ، هل تتوقف المشاريع والعطاء عند هذه السيدة المتجددة؟!

لقد أرادت أن تتوِّج مشاريعها بقمة الجمال وجوهرة العطاء، إذ إنها المرأة التي حفنت من تراب الضفتين حفنةً ضمتها إلى صدرها، وبذرت البذور التي أنبتت هنا وهناك، فقد شاهدت بأمّ عينها الاحتفاء بالزيِّ التراثي الفلسطيني، وكيف صار نجمة تتلألأ في فضاءات الكرة الأرضية لتحدّث عن هذا الشعب الخالد، فقررت أن تقوم بخطوة توأمية مشابهة وذلك من خلال إقامة متحف فني توثيقي للأزياء والحلي الأردنية الشعبية، أطلقت عليه اسم «رواقنا خزانة ذاكرتنا الجميلة» ليكون حافظةً لإحدى أهمِّ مكونات الهوية الشعبية والوطنية الأردنية وهي الملابس والإكسسوارات، لذلك وكعادتها، شكّلت فريقًا للعمل من المتطوعين ووضعت خطةً لجمع هذه الأثواب، فحلّق أفراد طاقم العمل هذا مثل طيور في

سماء الأردن، بحثًا عن كل ما هو قديمٌ وثمينٌ يمثِّل الأردن وتاريخه العريق، وليكون وسيلة معرفة واستثمار يدعم رعاية كبار السن.

وقد وضعت نصب عينيها أن يكون رافدًا إضافيًّا بمقتنياته ومنتجه الإعلامي والترويجي للسياحة محليًّا، ويكون وسيلة معرفية لزواره من طلبة المدارس والجامعات.

ولقد أخذت على عاتقها أن يكون متحف رواقنا المكان الذي يضمُّ أهم مفردات الهوية والحياة الأردنية من ملابس وحلي وإكسسوارات تمثِّل كافة الحقب الزمنية المعاصرة، بحيث تحكيه إنسانًا ومكانًا وحدثًا، عن طريق تقديم جرعة معرفية للزائر من خلال وسائل وتقنيات حديثة تطرح الحكاية وتعرض الصورة وتجسّد الزي الخاص بالمكان، كما حرصت على أن يقوم فريقٌ خاص بالتصوير والإخراج والطواف على مدن الأردن وقراه لأخذ لقطات من مناطق الأردن المختلفة، كما تبرز جمالها وأصالتها مقترنًا ذلك بالغناء واستعراضات الفرق الشعبية وجمال الأمكنة الطبيعية والآثار.

وقد تمَّ بناء المتحف وجمع المقتنيات، وبات قاب قوسين من الهيكلة الكاملة ليتمَّ افتتاحه بإذن الله تزامنًا مع الاحتفالات بمئوية تأسيس المملكة في عام 2021.

في الواقع، هذا غيضٌ من فيض ما تحدّثتُ به عن جزء من المؤسسات التنموية التي فكَّرتْ بإقامتها وخططتْ لها ثم قامت بتنفيذها دون أن تتوقف يومًا أو تخشى عائقًا، أو تتطلع إلى الوراء، فقد تبوأت القمة رغم كلِّ الصعاب والمعّوقات، وسارت في شعاب الليل تحمل مصباحها الذي أضاء درب المرأة، لتكون قدوة لها في عددٍ من المجالات لشقِّ دربها في طريق العمل والعطاء ثم الالتحاق بسلك التمريض، وبالرغم من أنها نذرت نفسها للعمل الإنساني إلا أنها لم تنسَ أبدًا وضع المرأة حين أسست الاتحاد الأردني العام وترأستْه لعقدٍ من الزمن بعد انتخابها، وكان لها العديد من المشاركات الدولية.

وعندما أضاءت المصباح للمهمشين من كبار السن ومن لا مأوى لهم أضاء دار الضيافة للمسنين في الجويدة.

وقد نظرتْ إلى واقع وحال المرضى النفسيين الغارقين في عتمة غياهب النفس ووصمة المجتمع، فقامت بتأسيس مركز الصفصاف الكائن في أحراش ناعور.

وعندما فتحت ذراعيها وقلبها الواسع لجني قمح سنوات المسنين ممن أدوا رسالتهم في الحياة، أسست لهم منتدى الرواد الكبار.

وأرَّقها تعبُ المرضى ومعاناتهم، فترأست الائتلاف الصحيّ لحماية المريض، وتوَّجت أعمالها بجوهرة الحب والجمال والانتماء الوطني، فجاء «رواقنا».

سيدةٌ كهذه نذرت نفسها للعطاء دون مقابل وتسلقت الشعاب والدروب الصعبة وتمثلت الحديث الشريف «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلةٌ فليغرسها».

امرأةٌ كهذه، ألا يجدر بنا جميعًا أن نتوّجها على عرش قلوبنا ونطلق عليها لقب «سيدة المصباح الأردني»، لا بل تُدرج سيرتها الذاتية ضمن مناهجنا المدرسيّة، لتكون قدوة للفتيات في كفاحها، صبرها، وعطائها.

هيفاء البشير.. مسكونٌ بها

أسعد خليفة

كانت عقارب الساعة تزحف متثاقلة تحاول الوصول إلى الثانية عشرة ليلًا معلنة انتصاف تلك الليلة من ليالي رمضان الخير عندما نظرتهما (الساعةَ وهي)، مغادرًا القاعة الرئيسة في منتدى الرواد الكبار على نيَّة الخروج بعد انقضاء سهرة فنية من الصنف الممتع الأصيل الثقيل، عندما حجبتني بوقع حضورها الآسر ودويّ همسها الآمر: تنضم لاجتماعنا؟

اللقطة الثانية:

الفن.. مشروع جماليٌ للواقع

أول يافطة تشمخ أمامي عندما أتسلل حذرًا إلى محراب عملي في مشروع توثيقي آخر لمكان أو إنسان أو لحَدَثٍ يجمعهما لكن مع هيفاء البشير تعجز النظرية عن التطبيق، إذ الواقع هو الأجمل.. وكذلك هن المؤثِّرات والمؤثِّرون يفرضون عليك إيقاف اللحظة وتثبيتها على شريط ذاكرتك في القائمة الذهبية منها، وتخليدَها مرئية مسموعة مقروءة.

إن من أدب المكان والمَقام ونحن نتشرف اليوم مع مؤسستكم الراسخة ثقافة وفكرا، مؤسسة عبد الحميد شومان، بالاحتفاء بضيفة هذا العام العشرين بعد الألفين للميلاد، عدم تكرار ما تجود به قرائح الأحبة والمحبين المشاركين في هذا الفرح والوفاء لصاحبته، بسرد السيرة والمسيرة لسيدة العطاء والنُّبل هيفاء البشير. وأخالني لا أجانب الصواب عندما أقول لكم: إن من يوجه بَوْصَلَتِهِ الإبداعية مرة نحو هذه السيدة سيظل تعود إليها بفعل جاذبيتها التي يصعب الانفلات منها.

سأروي لكم حكاية واحدٍ من كثير، لمنتجات تسجيلية بالصورة والصوت وبالصمت أحيانا، تشرفت بأن شدتني هيفاء البشير إلى أن تكون نموذجي فيها الذي أحببت أن يُحتذى به لتمام الغاية من وضع الفكرة وصياغتها، موضوعيًّا وفنيًّا وتنفيذيًّا، وصولًا إلى المتلقي من بعد حيثما كان في هذا العالم باستخدام أمثل للأدوات الفنية والترجمة إلى غير العربية.

أعطني أُمًّا.. أُعطك أُمَّةً

هو الفيلم التسجيلي من كتابتي وإخراجي، الذي أتشرف بعرضه اليوم على شاشات مؤسسة عبد الحميد شومان الحاضنة لهذا الحدث. هذا الفيلم هو محاولة لم تكتمل بعد لجمع كل المُنجَز الإنساني المادي منه والمعنوي في بعدي الفعل والفكر لهيفاء البشير، والذي بدأت العمل عليه متأخرًا عليها كثيرًا عام 2008. وتاليًا بعض من المسارات والدروب التي أوصلتني إلى حيث يقع النموذج الأمثل لتمام الغاية بإيصال الفكرة من خلاله أو من خلالها، إذ احتوت عملية البحث والكتابة لهذا العمل التوثيقي الحائز على العديد من الجوائز والتكريمات محليًّا وفي المدى الأرحب على معلومات وأرقام إحصائية أوجبت علينا ذلك:

تؤكد الإحصاءات الرسمية للنوع الاجتماعي في الأردن أن المرأة فيه تشكل بالفعل نصف المجتمع، وقد بلغت نسبتها في الأعوام الأخيرة 48.5٪ من عدد السكان. وتشير هذه الإحصاءات كذلك إلى أن معدل المشاركة الفاعلة للمرأة في التنمية والتطوير بلغت فقط حوالي 14٪ بالنسبة للمجموع الكلي من عدد السكان.

أعطني أُمًّا.. أُعطك أُمَّةً

فيلم تسجيلي تم وضع فكرته وصياغتها لتحقيق هدف تفعيل دور المرأة في الحياة الأردنية، باستثمار أمثل لطاقاتها الكبيرة في البناء والتطوير، وذلك بخفض عدد غير العاملات وغير المنتجات من النساء اللواتي يدخلن ضمن قائمة المعالات التي تعد في الأردن من أعلى النسب في العالم، وتبلغ أربعة معالين لكل مواطن، وإدخالهن في نظام العمل والإنتاج طاقات كبيرة فاعلة، من خلال الرؤية الخاصة والسياق العام لهذا البرنامج الذي يخاطب وبزاويتين متقابلتين المرأة مباشرة، والمسؤول عن إتاحة المجال وتوفير الفرص المناسبة لها لتأخذ دورها المطلوب في التنمية والتطوير على كافة المستويات الحياتية.

أعطني أُمًّا.. أُعطك أُمَّةً

يأخذ من فكرة طرح النموذج الإيجابي بعناصره وأدواته الإعلامية والفنية الخاصة، وصولًا إلى جعله المثل الأعلى للمتلقي من جمهوره المستهدف يتبعه ويحاكيه ويقتدي به، إذ تم اختيار السيدة هيفاء البشير رائدة العمل الإنساني النسوي من بين النساء الأردنيات اللاتي استطعن تدوين أسمائهن في سجل نجاح المرأة، ولفت الانتباه إلى أهمية دورها وقدرتها على الوصول إليه، وتقديمه بالوجه الأكمل والملفت من خلال مفرداته وعناصره التي تأخذ من الشاشة الصغيرة الموجودة أمام كل امرأة ومسؤول عنها مكانًا لها، جمَع ووضع الشخصيات المطروحة في إطار لم يترك مكونًا لحياة المرأة خارجه وحدّده بالآتي:

أولًا: التشريع.

ثانيًا: الصحة.

ثالثًا: التعليم.

رابعًا: العمل.

خامسًا: العيش.

سادسًا: المشاركة السياسية.

سابعًا: المشاركة في الحياة العامة.

أعطني أُمًّا.. أُعطك أُمَّةً

يُقَدَّم في إطار البرامج التسجيلية التي تهدف إلى إيصال محتوى يحمل رسائل موجهة للتأثير إيجابيًّا تجاه التطوير والتغيير، وصولًا إلى غاية ما يمكن الوصول إليه من أهداف من خلال مادة تلفزيونية موجهة وهي:

- الحفز على الحركة بقصد الوصول إلى تَمَثُّل النموذج المطروح بالوسائل والأدوات التي تم الإشارة إليها.
- تبني الأفكار المطروحة وحملها وإيصالها إلى الآخرين مباشرة أو توجيههم إلى مصدرها وبالتالي زيادة نسبة المشاهدة للبرنامج.
- تحريك الساكن داخل المتلقي من أفكار ووسائل تغذي الفكرة الأساسية وتحقق مزيدًا من أهدافها.

وقد اخترنا لتقديم البرنامج الشكل والإطار التسجيلي الذي يعتمد:

- الحديث المباشر من شخصية الحلقة للمشاهدين دون إغفال عنصر الزمن.
- التصوير الحي والاستعانة بالأرشيف لتغطية ما يقال بالصورة الأكثر تأثيرًا ومصداقية.
- الاستخدام الأمثل للرسم ثنائي وثلاثي الأبعاد للجداول ووسائل الإيضاح المعروضة.
- الاستعانة بعدد مناسب من الشهادات والمشاركات التي تؤكد ما يُقَدَّم وتعرضه من زوايا أخرى.

- الاستخدام الخاص للمؤثرات المسموعة والمرئية لضبط إيقاع الصوت والصورة بما يناسب الموضوع.

اللقطة الثالثة:

طَويتُ همّي.. خَلعتُ غَمّي.. أَنَبْتُ إليكَ.. دَخلتُ رِحابَكْ
غَدَتِ الدموع.. عندك شموع.. أَبَيْتُ الرجوعَ أَنالُ ثوابَكْ

هي تميمتي من منمنمات وصالي أتلوها أورادًا كلما نويت الوَصل ودخول الفَصل إلى مشروع جمالي جديد.

أعطني أُمًّا.. أُعطك أُمَّةً

أتمنى أن ينال رضاءَكم وإعجابكم بعد أن يحظى بمشاهدتكم وإصغائكم في هذا اللقاء الطَّقسي الحميمي في حضرة سيدة العَطاءِ والنُّبْلْ، أم مازن هيفاء البشير حفظها المولى بخير وسلامْ وعطاء متجدد ودائمْ.

سيدة البدايات.. الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي

ليث عودة [1]

أبدأ حديثي بما قيل في المأثور: «إنَّ الذين يستحقون النصب التذكارية لا يحتاجون لها»، حقًّا إنَّ السيدة هيفاء البشير لا تحتاج لتكريمٍ على مسيرتها بقدر ما نحتاج نحن لهذا التكريم؛ إننا نتعلَّم من خبرات حياتها في هذا التكريم، وهي حتى في تكريمها تقدِّم لنا من فيض عطائها الذي لا ينضب.

وبصفتي مديرًا وممثلًا للجمعية الأردنية للتأهيل النفسي– مركز الصفصاف، وهي أحد الصروح التي كانت السيدة هيفاء البشير حجر الأساس في تكوِّنها ولا تزال ترأس هيئتها الإدارية، فقد تأسست الجمعية عام 1989 بهدف تقديم خدمات التأهيل النفسي، وقد كان تأسيس مثل هذه الجمعية في ذلك الوقت يُعدُّ خروجًا على المألوف؛ ففي الوقت الذي كان يُنظر للمريض النفسي على أنَّه عالةٌ على المجتمع، كانت ثلة المؤسسين تقف في وجه المَوْجَة لتقول إنَّ هؤلاء الأشخاص هم أبناؤنا وإخواننا، وهم جزءٌ لا يتجزأ من تكوين الوطن، ولابدَّ أن تكون لهم يدٌ وذراعٌ في تشكيل مستقبله وبناء إنجازاته، وهذا وحده يكفي ليكون مؤشرًا على بُعد النظر والرؤية بعيدة المدى لدى هذه السيدة، بالإضافة إلى البُعد الإنساني الذي لا يخفى على أحد.

(1) مدير الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي.

رئاسة الجمعية

تشكلت الجمعية ولم تترأس السيدة أم مازن هذه الجمعية في بداياتها، وبعد أعوام على التأسيس وعندما شارفت على الانهيار، استنجد الرجال بالسيدة كخَيار أخير قبل إعلان انهيار الجمعية، وقد قبلت السيدة هيفاء التحدي، وبدأت الإنجازات بالظهور إنجازًا تلو الآخر، وكان التطور بطيئًا والعمل مليئًا بالتحدي والتعب والعناء وربما اليأس، لكنَّه خطوةٌ على طريق السعي اللامتناهي للوصول لأهداف الجمعية، فلقد آمنتْ دائمًا بمقولة: «إذا كانت الأحلام كبيرة فالحقائق لا تهم». في العام 1995 تكلل الجهد بالحصول على أرضٍ حرجية مساحتها 12 دونمًا ضمن أراضي ناعور في قرية تركي، وبدأ الحشد لجمع الأموال الكافية لبناء مركز للجمعية يليق بمرتاديها ويلبّي لهم أبسط حقوقهم الإنسانية: العيش الكريم. وفعلًا، في العام 2000 تم البدء ببناء المركز ليظهر اليوم بحُلَّته التي هو عليها اليوم، حلة جعلت منه مقصدًا لمن يعانون اضطرابات نفسيّة مزمنة، لمن أسماهم المجتمع «المرضى» وربما وصمهم بألقاب أخرى أساءت لهم ولذويهم، لكنَّ الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي بقيادة السيدة هيفاء البشير آثرت تسميتهم «المستفيدين»، وهذا كان له أثرٌ طيّب في نفوسهم ونفوس أهاليهم، كما أنه أسهم بشكلٍ أو بآخر في توجيه الدفة نحو اعتبار هذه الفئة جزءًا لا يتجزأ من المجتمع، وبذلك أسهم في علاج ما يسمى «وصمة العار» المرتبطة بالمرض النفسي. وقد تشرفت الجمعية بأن قامت جلالة الملكة رانيا العبدالله حفظها الله بافتتاح مركز الجمعية في العام 2003.

مركز الصفصاف للتأهيل

تقع الجمعية في منطقة تركي ضمن لواء ناعور في العاصمة عمان، وتبعد عن مركز مدينة عمان حوالي 25 كم. والمنطقة التي تقع فيها الجمعية تجمع بين الطابع الريفي من حيث الطبيعة والأحراج، والحداثة من حيث طبيعة البناء والمرافق. ولأنَّ الهدف كان من البداية

توفير الخدمة الشمولية، فهي توفر خدمات: التأهيل النفسي والاجتماعي من قبل اختصاصيين مدربين ويخضعون لإشراف دائم من قبل خبراء، والتأهيل المهني الذي يتضمَّن التدريب ضمن مشاغل الخياطة والنجارة والنسيج والتريكو والخيزران والفسيفساء والموسيقى والكمبيوتر والفندقة، وخدمات الطعام والشراب والنظافة والخدمات المساندة الأخرى.

وينقسم المستفيدون من خدمات المركز إلى قسمين رئيسيين هما، القسم الداخلي: وهم المستفيدون المقيمون داخل المركز، وهؤلاء تُقدَّم لهم خدمات الرعاية المسائية والطعام والشراب والمبيت بمواصفات عالية وجودة تضاهي المعايير الوطنية والدولية. والقسم الخارجي: وهم المستفيدون الخارجيّون الذين يتلقّون خدمات التأهيل نهارًا ويعودون لمنازلهم، وتوفّر الجمعية لهم خدمات المواصلات من منازلهم وإليها.

ولتحقيق أهداف المركز، كان لا بدَّ من أن يحتوي مجموعةً من المواصفات، منها أنّه يقع على قطعة أرض مساحتها 12 دونمًا، وتحتوي الأرض على أشجار حرجية وأشجار الزيتون بالإضافة لبرج الحَمَام وقنّ الدواجن، كما تُزرع في الأرض أعشابٌ طبيةٌ متنوعة، ومساحة البناء 1800 متر مربع، لذلك يتكون من طابقين، الأول: مجموعة من المشاغل المهنية والحرفية هي الخياطة والنسيج، الخيزران، الخدمات الفندقية، النجارة، الفسيفساء، الكمبيوتر، الموسيقى، التريكو، كما يضم قاعات جلوس ومنامات للمستفيدين المقيمين في المركز.

أمّا الطابق الثاني، فيضمُّ الجناح الإداري والمكاتب والمطبخ وقاعات الجلوس والاجتماعات. وبالنسبة للشرفة، فهي قاعة خارجية مجهّزة بكافة المرافق وتتسع لطاولات وكراسٍ تكفي لأكثر من 400 شخص، ومرافق الشرفة هي الحمامات والمغاسل والفرن الخارجي، وتشكل إطلالة الشرفة إضافةً فريدة من نوعها.

ولأنَّ الثبات في القمة أكثر صعوبة من الوصول إليها، فقد واجهت الجمعية الكثير من الصعوبات والتحديات على مدار السنوات، أذكر منها الضائقة المالية التي مرّت بها في عهد دولة رئيس الوزراء عبدالله النسور، وقد ألحَّت بطلب الدعم للجمعية، وأخيرًا أثمرت المساعي بالموافقة على إعطاء منحة سنوية حكومية للجمعية، فقد استضافها دولته وقدم دعمًا ماليًّا للجمعية.

هذه العظمة في الإنجاز جعلت شخصًا مثلي يتطلع إلى ذلك العقل الذي سبق كثيرًا من الناس في التفكير والتوقّع والمبادرة والمدافعة للوصول إلى الهدف، ودائما كنت أسأل نفسي عن السبب، وذات مرة قالت السيدة هيفاء البشير لي هذه الجملة، وقد دار حديثٌ بيننا حول أحد المشاريع التي تنوي الجمعية تنفيذها حال الحصول على دعم: «اكتب أنّ الشيء العلمي يفرض نفسه»، ودائمًا ما كان يدهشني أن أرى مكتبتها العامرة بشتى أنواع الكتب، في خضمّ انشغالاتها كأم مربية وكسيّدة مجتمع فاعلة في العمل التطوعي والإنساني وغيرها، لم تنس أن تترك للعلم والثقافة والقراءة جزءًا من يومها المزدحم حتى هذا اليوم، وفي كل زيارة أجد أنها قد بدأت بقراءة كتاب جديد، كما لا يفوتها أن تقرأ الصحف اليومية لتضيف لعلمها وخبرتها وثقافتها المزيد، وهذا هو سرُّ العلم والتعلم المستمر الذي لا يتوقف ما دام النفس والنبض.

أخيرًا وليس آخرًا أشعر بالفخر أنني كنت من ذلك الجيل الذي عاصر هذه القامة، كما أفتخر بأنني عملت معها عن قرب خلال السنوات الماضية، وقد كنت محظوظًا بالتعلُّم منها ونقل علمها وخبرتها إلى الميدان، ولا يسعني في هذا المقام سوى أن أسأل الله العلي القدير أن يمدَّ في عمرها وأن يتمم عليها الصحة والعافية حتى تكمل المسيرة على أفضل صورة تتمناها.

سيدة بحجم وطن

فاديا سمارة [1]

هيفاء البشير سيدة رائدة ومعطاءة استطاعت أن تغيِّر ملامح العمل التطوعي الاجتماعي في الأردن، وأن توجِّه الجهود نحو دعم فئات تستحق المساندة من كبار السن والمرضى، وبالذات المرضى النفسيين، إذ تمكَّنت من بناء مؤسسات عريقة فاعلة وكفؤة لدعم تلك الفئات، وعملت عبر سنواتٍ طوال بكل جدٍّ وتفانٍ للحفاظ على تلك المؤسسات وإدارتها وضمان ديمومتها، لتُسجِّل بذلك إنجازاتٍ تشكِّل علامةً فارقة في العمل المجتمعي الهادف لم تقم به أيُّ مؤسسة مجتمعٍ مدنيٍّ من قبل في الأردن.

لقد عرفتُ السيدة هيفاء عن قرب من خلال علاقات أسرية تربطنا، حيث كنت أُكنُّ لها الإعجاب بما سطَّرته من نجاح وإنجازات مشهود لها في كافة أرجاء الوطن..

وفي العام ٢٠٠٩، وفي نطاق عملي كمستشارة ضمن مشروع الشفافية الدوائية، وهو مشروعٌ صحيٌّ محلي لتعزيز الشفافية والمساءلة في القطاع الصحي بمشاركة سبع دول وبدعم هيئات دولية.. طلبتُ منها الانضمام للمشروع كممثلة لمؤسسات مهمّة في المجتمع المدني الصحي، وقد أضافت مشاركتها في المشروع أثرًا مميزًا لما تتمتع به من خبرة ورؤية ثاقبة وجدية في العمل.. وبعد انتهاء المشروع قررت كوكبة من المختصين والخبراء ممن عملوا في المشروع إكمال ما تمَّ البدء به من جهود دعم المرضى، من خلال المجتمع المدني والمضي بتأسيس هيئة ومظلة أُطلق عليها لاحقا «الائتلاف الصحي لحماية المريض». وتوجَّهت الأنظار إلى الأستاذة هيفاء لتقود الفريق المختصَّ لتأسيس

(1) ناشطة في المجال الصحي.

الائتلاف بهدف مأسسة عمل الجمعيات المختصة بالصحة وجمعيات المرضى، وجمعها تحت مظلّة الائتلاف، لتأخذ دورها الفاعل والممنهج في الدفاع عن حقوق المرضى والعمل لإرساء سياسات صحية متمركزة حول المرضى والطبقات الأقل حظًا.

وقد حظيتُ بالعمل عن قرب مع الأستاذة هيفاء، بحكم عملي كأمينٍ عام للائتلاف الذي تكوّن من عشرين جمعية تُعنى بالشأن الصحيِّ ومجموعة من الخبراء بصفتهم الشخصية..

لقد تميزت السيدة هيفاء بالحزم والسياسة والدبلوماسية، وكان لقيادتها للائتلاف ودعمها لنا جميعًا كمؤسسين وخبراء أكبر الأثر فيما أحدثه الائتلاف من أثر في مجال الدفاع عن المرضى، وتوصيل احتياجاتهم ومطالبهم لصنَّاع القرار وتحقيق الإنجازات..

فأطلقنا الميثاق الوطني لحقوق المريض، لمأسسة حقوق المرضى وتغيير وتوجيه السياسات الصحية بحيث تكون متمركزة حول المريض، وتم الإجماع على الميثاق من كلّ المعنيين، كما تم إطلاق البرامج التدريبية للميثاق لمقدمي الخدمة الصحية ومتلقيها، وأقمنا الكثير من ورشات العمل للتوعية الصحية للمرضى بكل ما تحويه من جوانب، واستطعنا أيضًا أن نعدِّل قانون المجلس الصحي العالي ليكون المرضى ممثلين في المجلس، فعادت السيدة هيفاء لتتبوأ مكانها في القطاع الصحي ضمن مقعد لتمثيل المريض في المجلس الصحي العالي، وهو المقعد ذاته الذي اختيرت لتشغله في الثمانينيات من القرن الماضي إبان تأسيس المجلس بصفتها ناشطة اجتماعية.. كما قمنا بإدراج أدوية مهمّة للمرضى على لائحة التأمين الصحي وعملنا الكثير لدعم المرضى وتلبية احتياجاتهم والعمل على ضمان توفّر الأدوية ذات الجودة والمأمونية لهم، مستمدين من هذه السيدة العظيمة القوة وحُسن التوجيه، وكانت لها رؤى منذ البداية بدور هذا الائتلاف الذي كبر دوره وعظم أداؤه تمامًا كما أرادت له أن يكون.. وكان لدعمها لكلٍّ منا الأثر البالغ في كل ما استطعنا تحقيقه عبر السنوات الثمان المنصرمة.

وتتميز الأستاذة هيفاء بذكاء وحكمة لافتين، وقدرة على قراءة الموقف والتحرك السريع للحصول على أفضل النتائج واغتنام الفرص، وهذا ما كان يحدث عند لقائنا مسؤولين أو أصحاب قرار، فوجودها معنا في لقاءات المسؤولين كان دائمًا سبيلًا لتلبية طلباتنا بسرعة، وتمهيد الطريق لتحقيق هدفنا.

كما إنها تمتلك قدرة كبيرة لمواجهة التحديات وفضِّ الخلافات، فبحكمتها ورباطة جأشها ورؤيتها الثاقبة تمكَّن الائتلاف من تذليل الكثير من الصعاب وتحويلها إلى جسورٍ وفرص.

وتجمع السيدة هيفاء بين صفات القيادة والحزم في الإدارة مع اللين والديمقراطية والاحترام الشديد واللافت لرأي الآخرين، كما أنها مستمعة جيدة وداعمة للأفكار المتميزة، أما تواضعها فهو لافتٌ للنظر أيضًا، ذلك أنها تعامل من هم أصغر منها سنًّا وأقلّ خبرة ومعرفة باحترام شديد، وتُسخِّر كل ما تستطيع لدعمهم وتسهيل عملهم.

وهي تدير عملها بمهنيةٍ عالية، وتستطيع الجمع بين الحزم و«الحنيّة» بطريقة مثيرة للانتباه، فهي تفكِّر بكل صغيرة وكبيرة في ما يخص الموظفين الذين يعملون معها في مؤسساتها.

أما وقد كنتُ ممن اغتنوا بالقرب من هذه السيدة العظيمة، وكان لي شرف ملازمتها ورفقتها عبر السنين العشر الماضية، فصدقًا أقول إنني أَعُدّ نفسي الأكثر حظًا وحظوةً بهذه الرفقة على الصعيدين المهني والشخصي على حدٍّ سواء.. فقد تعلَّمتُ منها الكثير، فهي ملهمةٌ في صمتها وملهمة في حديثها، وقد باتت صديقتي الصدوقة، صديقة الروح والفكر التي تتمتَّع بعصريةٍ وديناميكية الشباب وحكمة خبرة الكبار العظماء.

وقد لازمتُها فأصبتُ بالعدوى، عدوى التطوّع والعمل الجاد، ويعود الفضل لها بأنني أحببتُ العمل الاجتماعي والتطوعي، إذ ساقتني الأقدار لأنهل من علم مَدْرسة في هذا السياق، بكلِّ ما تحويه كلمة مدرسة من أبعاد وحيثيات ومعانٍ..

فهي تعمل بصمتٍ وإخلاصٍ وتواضع، وفي عالَمها تتعاظم الإنجازات وتتضاءل الصعاب أمام قوة التحدي والثقة العالية والمصداقية.

وأكثر ما أثَّر بي أنها، وبآليّةٍ مذهلة، تتقدم الصفوف وتوجد في الصفوف الخلفية والوسطى في آن واحد، لا أعرف كيف!

وتُعدُّ السيدة هيفاء ظاهرةً قلَّما تتكرر، إذ تميَّزت بتعدد المهارات والإبداع والإتقان في كل مهارة؛ فهي الكاتبة والأديبة والمُنجزة في الحقل الاجتماعي والصحي وحقل شؤون المرأة والقائدة الملهمة لمن حولها، وقبل كلِّ ذلك هي المربية والأم الناجحة.

الأستاذة هيفاء سنبلةُ الخير ونبع العطاء الذي لا يجفُّ، الأم الصابرة المرابطة، سيدة بحجم وطن.

البشير واستراتيجة كبار السن

أروى النجداوي [1]

مع نهاية عام 2014، وإثْر تكليفي من قبل المجلس الوطني لشؤون الأسرة بتقييم الاستراتجية الوطنية الأردنية لكبار السن للسنوات (2009-2013)، بدأت علاقتي العملية مع السيدة هيفاء البشير (أم مازن) بصفتها عضوًا فاعلًا في اللجنة الوطنية الأردنية لكبار السنّ، التي تضم ممثلين عن مختلف الجهات الحكومية والتطوعية المعنية بقضايا كبار السنّ في الأردن.

وعلى الرغم من إعجابي الكبير بإنجازات السيدة أم مازن في مجال العمل التطوعي في خدمة كبار السن في الأردن، إلا أنَّ العمل معها عن قُرب أضاف المزيد من الإعجاب بخُلُقها وعلمها وعملها، ولا أخفي عليكم أنَّ تقييم استراتيجية وطنية متعلقة بكبار السن في الأردن شكلت تحديًا كبيرًا بالنسبة لي؛ فعلى الرغم من تمرُّسي بأساليب التقييم، إلا أنَّ موضوع كبار السنِّ له أبعاده الاقتصادية والاجتماعية والصحيّة؛ لذا فقد قُمتُ بدايةً بمراجعة خطط العمل الدولية ذات العلاقة بكبار السنّ كخطة عمل «فيينا» الدولية للشيخوخة، ومبادئ الأمم المتحدة المتعلقة بكبار السن، وخطة عمل مدريد الدولية للشيخوخة، بالإضافة إلى الاستراتجيات وخطط العمل الإقليمية ذات العلاقة بقضايا الشيخوخة. كما قمتُ بمراجعة التشريعات والخطط الوطنية الأردنية ذات المساس بكبار السن، علاوةً على إنجازات الجهات المعنية ضمن القطاع العامّ والتطوعي؛ إذ تمَّ توثيق

(1) مستشارة المجلس الوطني لشؤون الأسرة في قضايا كبار السن.

هذه الإنجازات من خلال زيارات ميدانية للوزارات والهيئات والمجالس، علاوةً على زيارات خاصة لدور رعاية كبار السن، وهنا بدأت رحلة العمل الجادة في بناء منهجية التقييم الموجَّهة بالنتائج، التي استندت إلى أربعة محاور رئيسية هي: مشاركة كبار السن في عملية التنمية، كبار السن والرعاية الصحية، البيئة المادية الداعمة لكبار السن، وكبار السن والرعاية الاجتماعية.

وخلال رحلة العمل هذه، كان هناك العديد من اللقاءات التي جمعتني مع السيدة هيفاء البشير، وكنت دائمًا أستمع لها بشَغَف؛ فحديثها كان يستند إلى خبرة عمليّة عميقة في قضايا كبار السن، ورؤى مستقبلية ملامسة لما جاءت به الخطط والاستراتيجيات الدولية للشيخوخة، علاوةً على حسِّها الإنسانيِّ والوطنيِّ بهموم هذه الفئة من المواطنين في المجتمع الأردني، مما كان يثير فضولي دائمًا بتوجيه المزيد من الأسئلة والاستفسارات حول رأيها في قضايا كبار السنِّ في الأردن، وما هي السُبل والإجراءات والأولويات الواجب العمل عليها لمواجهة التحديات المستقبلية المتعلقة بالظروف المعيشية والصحية والنفسية المتعلقة بكبار السن.

وكان حديثها دائمًا يؤكِّد مدى اهتمامها وحرصها على خدمة هذه الفئة، سواء من خلال الخدمات التي تقدمها دور الرعاية لكبار السن المقيمين فيها، أو من خلال الخدمات الصحية والاجتماعية والنفسية التي تقدمها الجهات الحكومية المتعددة لكبار السنِّ ضمن مجتمعاتهم المحلية. كما كانت دائما تطرح الأفكار البنَّاءة التي تدعم فئة كبار السنِّ في الأردن؛ فهي كانت المُبادِرة بفكرة إنشاء صندوق دعم كبار السن، وتم وضع هذه المُبادرة ضمن الأولويات على خطة العمل التنفيذية لاستراتجية كبار السن للسنوات(2018-2022)، التي قمتُ بإعدادها بالتعاون مع الجهات المعنيِّة، كما تم تشكيل لجنة من كلٍّ من المجلس الوطني لشؤون الأسرة ووزارة التنمية الاجتماعية ووازرة الصحة ووزارة المالية،

للعمل على سَنِّ تشريع يُحدِّد أهداف ومهام هذا الصندوق ومصادر أمواله وأوْجُهَ صرفها، إلا أنه وللأسف، لم يرَ هذا الصندوق النور بعد.

وقد أشارت السيدة هيفاء البشير في العديد من اجتماعات اللجنة الوطنية لكبار السن إلى التحوّل الديموغرافي السكاني الذي يشهده الأردن وغيره من الدول من ازدياد أعداد كبار السن في المستقبل القريب، وما يترتب على ذلك من ضغوطات على الخدمات الخاصة بهذه الفئة، كما أنَّ ظاهرة التحول من الأسرة الممتدة إلى الأسرة النووية التي تمثَّلت بهجرة الأبناء أو عملهم بالخارج، وظروف عمل الأبناء وغيابهم عن المنزل لساعات طويلة، أصبحت يشكل عبئًا آخر في نقص توفّر الرعاية الصحية والاجتماعية والنفسيّة المناسبة لكبار السنِّ في منازلهم.

ولا زلت أذكر ذلك اليوم الذي زرتُ فيه دار الضيافة للمسنين لأول مرة، وقيامي بالحديث مع بعض كبار السن المقيمين هناك للاستفسار عن مدى رضاهم عن الخدمات المقدّمة لهم، فقد فوجئتُ بإحدى الإجابات من أحدهم بأنه يعيش في الدار «كملك» بعد أن تركتْه زوجته وبناته الثلاث وسافرن خارج البلاد ولم يعد هناك من يخدمه بعد وفاة والدته. كما أشار إلى أنَّه، وفي ضوء عدم قدرته على خدمة نفسه في منزله، فإنَّه وجد في الدار الرعاية الإنسانية والصحيَّة المناسبة، وأصبح طعامه وشرابه وإقامته متوفرة دون عناء.

وأثناء تجوالي في الدار والاستماع إلى العديد من الآراء، لمستُ الجوَّ الأُسريَّ والرعاية الإنسانية والطبيّة التي تُقدَّم للمقيمين في هذه الدار، وخرجتُ بانطباعٍ إيجابيٍّ حول الحياة الكريمة التي يعيشها هؤلاء بالمقارنة مع تلك الظروف السيئة التي كانوا سيعيشونها في منازلهم لو تُركوا وحيدين دون رعاية أو عناية، في ظلِّ عدم وجود من يرعاهم في منازلهم.

لقد زرعت لدي السيدة هيفاء البشير الشَّغَف في موضوع كبار السن، لذا، وخلال زيارتي لابني في ولاية أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية في ديسمبر من عام 2018، صممتُ على زيارة أحد دور رعاية كبار السن هناك للاطلاع على التجربة الأمريكية في هذا المجال،

وعلى الرغم من توفير كافة الاحتياجات المادية لكبار السن المقيمين في الدار، والتي تماثل فنادق الخمس نجوم، بالإضافة للرعاية الصحية المتميزة، إلا أنَّه، وخلال حديثي لإحدى كبيرات السن، أخذتْ تشهق بالبكاء وترجوني أن أعيدها لمنزلها لأنها غير مرتاحة في تلك الدار.

وهنا أود أن أشير إلى أنَّ معظم الدول المتقدمة أدركت مؤخرًا أهمية بقاء كبير السن في بيئته وبيته، لما يوفره ذلك من راحة نفسيّة له وذكريات جميلة يودُّ دائمًا أن يُحدِّث بها من حوله؛ لذا فإن المُمارسات الفُضلى لرعاية كبار السن أصبحت تتجه في الآونة الأخيرة نحو الرعاية المنزلية، وذلك بالإبقاء على كبير السن في منزله وقيام الدولة أو القطاع التطوعي بتوفير أخصائيين اجتماعيين أو نفسيين، وفي بعض الأحيان ممرضين لرعاية كبير السن في منزله ضمن جوٍّ أكثر ملائمة لراحته النفسية، ولعل التجربة النيوزلندية كانت رائدة في هذا المجال، إذ كانت رؤية الحكومة النيوزلندية وشعارها عند إعدادها لاستراتجية كبار السن «التعمير في المنزل» (Place Aging at).

وفي هذا الصدد، فقد تم مناقشة هذا الأمر في العديد من اجتماعات اللجنة الوطنية الأردنية لكبار السن، وفي الوقت الذي أكَّدت فيه السيدة هيفاء البشير، وكذلك جميع أعضاء اللجنة، أنَّ المجتمع الأردني ما زال مجتمعًا متماسكًا أُسَريًّا ويرعى كبير السن ويوقِّره، إلا أنَّ هناك بعض الحالات التي تستوجب وجودها في دور الرعاية لعدة أسبابٍ هي ليست مدار حديثنا في هذا اللقاء. أما بالنسبة لفكرة توفير الحكومة للرعاية المنزلية لكبار السن ممن تقطَّعت بهم السبل، فهي ما زالت فكرة حديثة في معظم الدول، كما أنَّها مُكلفة جدًّا لدولة مواردها المالية محدودة وموازنتها الحكومية متواضعة كما هي الحال في الأردن، وتبقى دور الرعاية أفضل الخيارات المُتاحة في رعاية كبار السنِّ من خلال الخدمات التي يقدِّمها القطاع التطوعي مشكورًا، وبدعم مالي من وزارة التنمية الاجتماعية بشراء تلك الخدمات.

أمَّا عن نتائج تقييم الاستراتجية الوطنية الأردنية لكبار السنِّ فقد جاءت جيدة، وعكست مدى التماسك والترابط الأسريَ في المجتمع الأردني، إلا أنه يستذكرني هنا موقف السيدة هيفاء البشير المُشرِّف حول تقييمٍ دوليٍّ قامت به إحدى الجهات الدولية حول وضع كبار السن في الأردن، فقد اعتبرته السيدة أم مازن إساءةً للجهود الحكومية والتطوعيّة والوطنيّة في رعاية كبار السن. ومن منطلق غِيرتها على المصلحة العامة عبَّرت عن استيائها وبحرارة الروح الإنسانية، خلال اجتماع اللجنة الوطنية لكبار السن، حول عدم قيام الجهة الدولية بمراعاة خصوصية وثقافة المجتمع الأردني بالتعامل مع كبار السنِّ عند إجراء عملية التقييم. وقد أثار هذا الموضوع جدلًا بين أعضاء اللجنة الوطنية لكبار السن، مما دفع االمجلس الوطني لشؤون الأسرة ووزارة التنمية الاجتماعية إلى مخاطبة تلك الجهة الدولية وإبداء التحفظات على منهجية التقييم التي تتبعها، وتبعًا لذلك قامت الجهة الدولية بإرسال مندوبها للأردنّ للاجتماع والاستماع إلى وجهة نظر الجهات المعنية بقضايا كبار السن، والتشاور حول منهجية التقييم الخاصة بهم بالمقارنة مع منهجية التقييم التي تم اتِّباعها محليًّا والتي تراعي ثقافة وطبيعة المجتمع الأردني، ووعدت تلك الجهة الدولية بإعادة النظر بمنهجيّتها المُتَّبعة في ترتيب وتقييم الدول في مجال قضايا الشيخوخة.

لقد ارتقت السيدة هيفاء البشير بالعمل التطوعي المُوجَّه لكبار السن إلى مستوى العالمية، وبعيدًا عن كل مظاهر الاستعراض الشخصي، وما قدَّمْتُه من أمثلة حول المواقف الإنسانية والعملية التي لمستُها من خلال تعاملي معها، فإنّ ذلك ليس غير جزءٍ يسيرٍ من جهودها الخيِّرة خلال مسيرتها الطويلة والمليئة بالتحديات، ولا أدري إن كنتُ قد أنصفتُ تلك السيدة النبيلة حقَّها، لكنني على يقينٍ من أنَّ إنجازاتها سيشهد لها التاريخ وتبقى نبراسًا مضيئًا في مسيرة العمل التطوعيِّ الأردنيِّ وخدمة كبار السن.

الاتحاد النسائي والحركة النسائية

محطات مضيئة

أسمى خضر [1]

السيّدة هيفاء البشير هي كالسنديانة في جذورها الراسخة في الأرض وفي الوجدان، وفي تاريخ الحركة النسائيّة الأردنيّة، وفي تاريخ العمل الاجتماعي.

هذه السيّدة، هي بصلابة هذه الشجرة العريقة وبقدرتها على مواجهة ومقاومة كلّ ما يعترضها من صعوبات؛ فهذه السنديانة لها فروعٌ عديدة وغنيّة تُظلل الجميع بمحبةٍ ورفق، ولكنْ أيضًا بحزمٍ وصلابة وبقدرة على وضع الأمور في نصابها دائمًا، والتوجّه الدقيق نحو الإنجاز المُتقن في كلّ ما تقوم به. هيفاء البشير التي عرفناها شابات وهي تتصدّى لقضايا في المجتمع، قضايا لا يمكن القول إنّها كانت مطروقةً وإنما كانت رياديّةً في تناولها للعمل الاجتماعي، وحتى في تناولها لما يتعلّق بشؤون المرأة؛ هي التي مثّلتنا مبكّرًا كأوّل عضوةٍ امرأة في مجلس أمانة العاصمة أو مجلس أمانة عمان، وهي السيّدة التي مثّلتنا في المجلس الاستشاري، وهي السيّدة التي رافقتنا في معظم المحطات التي عشناها في الحركة النسائيّة، بدءًا من وجود دائرة للمرأة في وزارة الشؤون الاجتماعيّة والعمل، مرورًا بكلّ المحطّات التي تَلتْ.

السيدة هيفاء البشير التي تعلّمنا منها العمل بروح الفريق، وتعلّمنا منها أنّ القيادة هي في ريادة الطفل وليس القول، وأنّ العمل الجادّ العلمي هو ما يجب أن يفرض نفسه في نهاية الأمر. السيدة هيفاء البشير بالنسبة لي كانت النموذج والأستاذة في مجال التطوّع والعمل الاجتماعي الذي لا ينتظر سوى تحقيق تحسّن في حياة من حولها وفي حياة مجتمعها.

(1) ناشطة نسائيّة وحقوقيّة/ وزيرة الثقافة السابقة.

هذه السيّدة التي قالت لي يومًا إنّك تبدعين في الارتجال؛ منعتني حتى من كتابة كلمة بحقّها خطيًّا، وأتوق إلى أن اكتب الكثير عن هذه السيّدة التي زاملتنا في مجالات عديدة، ونعتز ونفتخر بأنّها كانت في الهيئة الاستشاريّة لجمعيّة تضامن، والجمعيّة تعتبرها واحدةً من السيّدات اللواتي نستلهم سيرتهنّ في العمل.

كان لها تأثيرٌ كبير في «عقلنة» أداء جمعيّتنا وفي عقلنة خطابنا وفي جعله قابلًا لأن يحقق إنجازات؛ لأنّها من تعلّمنا منها الذكاء الاجتماعي والذكاء العاطفي والذكاء السياسي، فهي أبدًا لم تتوانَ في أيّ محطة اجتمعنا فيها للتعبير عن موقف وطني تجاه فلسطين أو تجاه العراق أو أيّ منطقة عربيّة، فهي عروبيّة بجدارة كلما تطلّب الأمر ذلك، وهي تنتصر لقضايا المرأة، إذ طالما كانت لا تغيب أبدًا عن أيّ ملتقيات أو منتديات تُدعى إليها، فلها دائمًا الإسهام القيّم والجوهري في كلّ الحوارات التي تدور.

لطالما التقنيا لصياغة بيان أو لمعالجة ومناقشة مشروع قانون أو لطرح فكرة جديدة نطالب بها ونعتبرها ضرورية لتمكين المرأة. ولم يكن وجودها دائمًا إلا إضافة قيّمة جدًا للنقاش الذي يدور، ودائمًا لها قدرة على إضفاء الواقعيّة على النقاش، الواقعيّة التي يجللها الأمل والطموح، وواقعيّتها ليست أبدًا من تلك الأنماط التي تقبل بالواقع المر، لكنّها الواقعيّة التي ترى الخطوات التي يمكن أن تحقق النجاح، والخطوات التي يمكن أن تتواصل بها.

أذكر أنني حين توليت رئاسة اتحاد المرأة الأردنيّة، وكان اسمه «اتحاد المرأة في الأردن» أو «الاتحاد النسائي في الأردن»، كانت ترأس الاتحاد النسائي الأردني العام، وكان يبدو ظاهريًا أنّ هناك خلافًا كبيرًا بين الاتحادين، وأذكر أنني قابلتها في محاولة للتعاون وإيجاد طرق لحلّ إشكالية وجود اتحادين في البلد الواحد، وما وجدتُ منها إلا كلّ تفهّم وكلّ استعداد وكلّ رغبة في تجاوز هذه العقبة وفي إعادة بناء العلاقة على أساس التعاون. واستطعنا في مرحلة محددة من عمر الاتحادين أن نحقق تقدّمًا في التعاون، وأن نحقق

محاولة للوصول إلى رؤى مشتركة، وهذا التفاهم والعلاقة التي لا تفسد للودّ قضية ما زالت قائمة بين الاتحادين والمؤسسات والمنظمات النسائيّة، لكنّ السيدة هيفاء البشير كانت على استعداد للتقدم خطوات أكبر وأوسع في هذا الاتجاه لو أتيح لنا الاستمرار في مواقعنا بالنسبة لي وبالنسبة لها..

أيضًا السيدة هيفاء البشير سيّدة تجمع ولا تفرّق، فهي طالما حاولت أن تجمع الجهات المختلفة، وأن تجد القواسم المشتركة التي يمكن أن تساعد على إحقاق خطوات إلى الأمام وعلى ترك الخلافات جانبًا والتقدّم نحو الإنجاز.

هذه السيّدة علّمتنا أنّ الإنجاز تراكم، لكنّه تراكمٌ يحتاج إلى الصّبر والمثابرة والقوّة والعزيمة والإرادة والصلابة، وهي تميّزت بكلّ هذا، وهي التي كانت دائمًا ما تأتي لتضفي على أيّ جلسة أو أي لقاء أو نقاش وأيّ بحث، هالة من النّور الذي يجعل الرؤية أوضح، ويجعل التقدّم إلى الأمام أكثر واقعيّة، وهي التي كانت دائمًا، بما في جعبتها من آراء وأفكار، قادرة على أن تغني أيّ حوار في أيٍّ من الموضوعات التي كنّا نناقشها معًا.

السيّدة هيفاء البشير واحدة من أعمدة الحركة النسائيّة الأردنيّة، وواحدة من رائدات هذه الحركة، وواحدة من اللواتي استطعن بكلّ جدارة أن يجعلن الطريق الوعر ممهدًا للبنات وللحفيدات، وهنا نرى الحفيدات اللاتي أغنين حياة «أم مازن» ينتشرن في مواقع مختلفة، ولا أعني فقط الحفيدات البيولوجيّات، وتمنياتنا لهنّ دائمًا بالتفوّق والنجاح، لكن أيضًا لبناتها الكُثُر اللواتي عملن في إطار عملها وبرامجها ومشروعاتها ومبادراتها، واللواتي تعلّمن أن لا مستحيل في قاموس من يملك الإرادة.

نحن أحوج ما نكون في مثل هذا الوقت إلى سيدة مثل هيفاء البشير، نحن بحاجة إلى هذه الروح المفعمة بالأمل رغم كلّ الجراحات ورغم كلّ الصعوبات التي يمكن أن تواجهها امرأة مرّت بكلّ ما مرّت به هيفاء البشير.

«أم مازن» التي كانت دائمًا تعطي الثقة لمن حولها بأنه لا شيء من المرّ يبقى على حاله، ولا شيء من الجمال والمحبّة والنجاح يستحيل على من يسعى إليه، ولذلك استمعنا إلى ما استمعنا إليه طول هذا اليوم، وسنستمع كثيرًا ولن نفي هذه السيّدة العظيمة حقها في أن نقدّمها للأجيال كنموذج يحتذى به. والسيدة أثبتت بالدليل وليس بالخطاب ولا بالقول أنّ الإرادة الصّلبة تجعل الجهل علمًا، وتجعل الفقر غنى، وتجعل الألم محفّزًا، وتملأ الكون حولها بالفرح والإنجاز، وتجعلنا جميعًا نتفاءل بأنّ الحياة جميلة، وبأنه يمكن أن تكون أجمل بوجود أم مازن ووجود هذه الروح الرافعة التي لم تتوان يومًا عما يمكن أن يقوم به أي إنسان. ووطننا بحاجة إلى عشرات من أم مازن، وإلى العشرات من أعمالها ومبادراتها ونجاحاتها التي نريد لها أن تستدام، والتي عملت هي بجد من أجل أن تكون مبادرات مستدامة، وهي بهذا مهدت لمواطن مؤثر في مجتمعه أو مواطنة مؤثرة في مجتمعها، وحتى أي إنسان يريد أن يجعل الإنسانيّة أقلّ بشاعة مما نرى، وأقلّ قلقًا مما نرى، وأقل حزنًا وألمًا وأكثر تفاؤلًا بأنّ القادم يمكن أن يكون أجمل، لأنّ هناك أرواحًا رائعة عظيمة مثل روح السيّدة هيفاء البشير التي تجعلنا دائمًا نبتسم ونقول للصعوبات: لا يمكنك أن تنتصري علينا. شكرًا لكم وشكرًا لمؤسسة شومان لتكريمها ضيفة العام الجديرة بالاحترام.

هيفاء البشير.. امرأة من ياسمين

هيفاء النجّار [1]

كيف يُمكن أن تجمع شتات المفردات لتعبِّر عن قامةٍ إنسانيةٍ عظيمةٍ بحجم هيفاء البشير؟! فالحديث عن أم مازن- كما تُحبُّ أن يدعوها الآخرون- يأخذك إلى تاريخٍ ثَرٍّ ليس ذاتيًّا فحسب، بل هو جمعيٌّ أيضًا.. هو حديثٌ عن نموذجٍ نسائيٍّ إنسانيٍّ مُلهم، عن معلمة متعلمة دومًا، عن أمٍّ أعطت أبناءها من دفقات روحها ونور عينيها ليغدوا متميزين.. عن زوجة رافقت زوجها في مسيرته داعمةً وحاضنةً ومساندة.. عن سيدة العمل الاجتماعي التي أسست جمعيات خيرية ما زالت ترى النور حتى يومنا هذا.. عن ناشطة اجتماعية سياسية تبوأت مناصب كانت حكرًا على الرجل فقط.. عن حزبيَّةٍ أيضًا انتمت لأحد الأحزاب لإيمانها بالعمل السياسي للمرأة العربية ودورها الكبير في ذلك.. عن كاتبة أصدرت مجموعتين قصصيتين للأطفال واستحقت جائزة عليهما، وكانت تدعو باستمرار إلى ضرورة تقديم أدبٍ راقٍ جميلٍ للطفل كي يرتقي بذائقته الأدبية والجمالية، ويحمله في وجدانه سنين طويلة، ويساعده على تفتُّح نُضجه الفكريِّ بالواقع المحيط به بأسلوبٍ يتواءم وقدراته العقلية.. عن مثقفةٍ بذلت كل ما في وسعها من أجل إغناء المشهد الثقافي الأردني ولا سيما للطفل.

إنها نموذجٌ للمرأة التي آمنت بأنَّ التعليم -ولا سيما للمرأة- أداةٌ فاعلةٌ للخلاص من كثيرٍ من أمراضنا الاجتماعية، والوقوف ثانيةً بعد سلسلة من كبواتنا على الصعيد السياسيِّ، فعلَّمت حينما كانت المرأة المتزوجة محرومةً من تلك البهجة، وليس هذا فقط، بل ظلَّت

(1) وزيرة الثقافة الأردنية/ عضو في مجلس الأعيان/ تربوية وناشطة نسائيّة.

تحلم بأن تواصل تعلُّمها حتى حققت ذلك الهدف، فنالت شهادتها الجامعية، وهي في سنٍّ يظن الكثيرون أنه خريف العمر، لكنها كانت حالمةً تُحب الحياة وتعيشها كأنها تعيش أبدًا.

لقد أدركت أم مازن بحسِّها العالي وبصيرتها أنَّ الثقافة والإبداع بشتى تجلياته هما الحصن المنيع الذي يحمي ثقافتنا وهويتنا ويكرّس وجودنا على خارطة العالم، فلا تبتلعنا الثقافات الأخرى فنغدو منفعلين فقط لا فاعلين، ولهذا فقد عملت بجهدٍ كبيرٍ لتأسيس منتدى الرواد الكبار ليكون مساحةً للمبدعين لكي يحلِّقوا في سماء الإبداع، ومجالًا للحوار والجدال، وفُسحةً للفرح والأمل.

كما كان لكبار السنِّ نصيبٌ من جهودها فأسست جمعية الأَسرَّة البيضاء، لأنها تؤمن بأنَّ كبار السن يستحقّون منا كلَّ رعاية واهتمام، فهم بركتنا الذين أعطوا بلا حدود، والذين يكتنزون حكايةَ شعبٍ واجه التحديات وشح الإمكانيات من أجل بناء وطنٍ يُشار له بالبنان.

هي التي استبصرت بأنَّ للمرأة دورًا فاعلًا في عملية التنمية الاجتماعية والسياسية والثقافية، فانخرطت في لجان المرأة المختلفة؛ تعمل هنا وترأس هناك.. تقود تارةً وتلهم تارات.. لا تكلُّ ولا تملُّ من العمل العام الذي يُسهم في نهضة الأردن ونمائه، ولا تتوانى عن دعم المرأة وتشجيعها على العمل والعلم والثقافة والمواصلة الدائمة نحو تحقيق الذات، لتصبح النساء قادراتٍ على اختراق حجب الكون فيعشن حياةً أجود وأجمل، ويعشن الحياة بغناها واتساعها، ويصنعن التغيُّر الذي يولّد مستقبلًا مشرقًا لنا جميعًا.

هيفاء البشير حملت في وجدانها ياسمينة من حارات نابلس العتيقة لتزرعها في السلط فيفوح أريجها في أزقة السلط كلها. عاشت في مجتمعٍ جديدٍ احتضنها، وهي بدورها اندمجت معه وفي حياته واحتضنته وخدمته بكل طاقته، لكنَّها لم تنسَ وطنها الأُمَّ، فكانت دائمة النظر إليه من جبال السلط فيهفو قلبها إليه، وتتابع أخباره فيتمزق قلبها وهي ترى ما الذي يجري في مدينتها وتسمع عن مأساة شعبها، لكنها لم تقف مكتوفة الأيدي بل دعمت نضال أبنائه.

هي التي تأسرك بدفء مَلْقاها، وتواضعها الجم، وتستولي على جوارحك وحواسك وهي تحادثك، لأنها تبث الأمل في النفوس، وتزوِّد بطاقةٍ إيجابية، كيف لا وأنت أمام قصة كفاح ونضال وإنجازات ونجاحات في شتى المجالات، وحكاية عمل صادق وجهد دؤوب لم تتغيَّا منه سوى خدمة الأردن وبناته وأبنائه.

حينما يذكر اسم هيفاء البشير تتراءى أمامي صورة امرأة جميلة مهيبة معطاءة كريمة عاشقة للأرض ومُحبَّة للإنسان، وستظل نموذجًا ناصعًا للمرأة الأردنية والعربية. أطال الله في عمرها ومتّعها بالصحة والعافية.

سيدة الوطن الجميلة

أمان السائح [1]

سيدة العمل الأردني، سيدة الوطن الجميلة، صاحبة الخلق والوجه الجميلين، ومالكة الأيادي البيضاء التي لا تقف عند حد.. في حضرتك سيدتي تتفاوت الصُّوَر أمامنا، لكنها لا تظهر إلا جميلةً رائعةً، يتفاوت شكل الأحداث معك وأمامك وبك، لكنَّها أيضًا لا تظهر في مخيلتنا وعلى محياك الجميل إلا ناصعةً قوية، تفتح أبوابًا في جنة الأردن، وعند رب العالمين في جنة السماء، لأن ما امتلكت من طاقات، سيكون حتمًا بوابة عبور إلى كلِّ ما يمكن أن يكون مختلفًا..

لم تكن المؤسسة العظيمة رائدة الفكر والثقافة، والتوازن بالطرح والمنطق، «مؤسسة عبدالحميد شومان « إلا مُحقّقةً بامتياز، وقد كتبت اسمَك على بوابتها الثقافية والأدبية والاجتماعية، لتمنحَكِ لقب «ضيف العام»، فـ«شومان الأردن» بهذا الشموخ والاسم الخالد والعطاء المختلف، هي من منحتك هذا العام هذا اللقب، لكنَّكِ في قلوب الأردنيين جميعًا شبابًا وشيبًا، نساءً ورجالًا، وربما هذا الجيل الجديد.. أنت أمُّ الجميع، وسيدة عرش الإنسانية والعمل الاجتماعيّ الذي لم يغب عنك حتى هذه الساعة التي غادرتِ فيها مبنى الرواد الكبار، لتكوني بين من يحبونك الآن، وسط قلوبٍ تدعو لك دومًا بحياة مليئة بالصحة والطاقة الإيجابية، فنحْن جميعًا و«شومان» نمنحكِ كل عام وعبر كل يوم لقبًا جديدًا يليق بعطائك وأُمومتك وصبرك، وهذه الأجيال التي تربَّتْ بين يديك، وفي عينيك،

(1) صحفية متخصصة في الشؤون التربوية.

ومرَّتْ من خلال قلبك، وصوتك الذي ينبض دومًا بالحياة.. تدعو الله أن يديم حُبَّكِ وعطاءكِ، وأدامك فخرًا وذخرًا لمن حولك سيدتي..

أتعلمون لماذا «هيفاء البشير»، مع حفظ الألقاب؟! أتعلمون لماذا تعتلي دومًا سيدة الحب والعطاء والتقدير؟! لأنها تلك الإنسانة العظيمة التي لم تتوقف لحظةً في حياتها عن الإبقاء على طاقتها الإيجابية، لتكون مظلةً للجميع من حولها، ولتمنح الأمل، وتقوم بالواجب للصغير قبل الكبير، ولتقول كلمة حقٍّ تجاه الوطن ورجاله ونسائه، ولتكون دومًا الحاضرة في كلِّ مناسبات الأردن، ولتكون أيضًا سيّدة الشاشة في يوم المرأة، وسيّدة القلوب يوم الأم، وسيّدة الأردن والوطن في كل يوم، لذلك نحن الآن نعتلي المنصة لا لنقول خطابًا ممنهجًا، بل فقط لنقول كلمة حق لك سيدتي..

أذكر جيدًا قبل سنوات طويلة جدًّا،.. نعم!.. عشرات السنين، عندما بدأتُ عملي الصحفي، وعندما كنت ألتقط الخبر وأبحث عن المعلومة، وأنظر لمن حولي بأنهم أناسٌ مختلفون، كيف يمكن أن أصل لثقتهم، وأن أكون دومًا على قدر المسؤولية،.. لكنك أنت سيدتي كنت «غير»!.. نعم!.. لقد كنت تمنحينني حبًّا منذ أول لقاء أجريته معكِ بمناسبة يوم المرأة العالمي،.. كنتُ في حضرتك تلك الطفلة الكبيرة، التي منحتْها «أُمها» ثقةً وحبًّا ومعلومات، وكان اللقاء الأجمل الذي بدأتُ به طريقي الإعلامي، لأنه كان معك سيدتي الفاضلة،.. لقد كنتِ تحدثينني عن حبِّك لأبنائك، عن تاريخك، عن لحظات وفاة زوجك البطل، عن مسؤوليتك تجاه البيت، وعن عشقك للوطن،.. للعمل الاجتماعي، تحدثتِ معي عن أحلامك وطموحاتك، وكيف أنك تريدين أن تصنعي من عالم المرأة الأردنية، واحةً خصبةً يُباهى بها العالم، وأنَّ نساء الأردن هُنَّ الطاقة، هُنَّ العطاء، وهنَّ الماضي والحاضر..

كانت كلماتك آنذاك بمثابة أول الدروس في حياتي المهنية، وجدتُ كيف يمكن للمرء أن يصنع من الحزن والقهر نجاحًا، وكيف يمكنه أن يحوّل الدموع ووجع الفقدان إلى عالمٍ

من العطاء والمسؤولية، وأنَّ أمًّا في ريعان شبابها فجأة تفقد السند ومصدر المال والزوج والأب لأبناءٍ ستة لم يعلموا حينها أنَّ والدهم قد غاب، ليس بالمعنى الحقيقي للموت، لا بل لأنك، يا سيدتنا جميعًا، انتزعتِ منهم حرقة الوجع والفقد والغياب، لتكوني وسطهم وبينهم ومعهم الأم والأخت والأب والسند، والأهمُّ مصدر الإلهام.

سيدتي، لقد كنت تمنحينني خارطة طريق للحياة العملية المهنية، فإن وقعتُ بمطبٍّ حياتي أتذكَّرك دومًا، لأعلم أنَّ أيَّ محطة مرهقة في حياتي لايمكن أن تصل إلى حد ألمك وحياتك وصبرك، فكنتُ أتجاوز كل شيء، وأسير قدمًا، لأنك ألهمتني لوحة وريشة وقلمًا لكي أرسم وأخطَّ أيامي..

وأذكر يا سيدة العمل النسويِّ كم كنتِ وما زلتِ حريصةً على إيفاء من تعلمين، وبالرغم من شعورك أحيانًا بالإعياء، أو عارض صحّي، أو أيّ وجع بسيط، إلا أنّكِ كنتِ حاضرة، وتقومين بواجب الفرح والعزاء، والمرض تجاه من تعرفين، أو حتى من تسمعين بحاجته إلى أن تكوني إلى جانبه، فتواصلين السؤال وتبقين على عهد الوفاء كما أنتِ دومًا..

ودائمًا يطرق في أذني صوتك عندما تبدئين مكالمتكِ معي دون مقدماتٍ لتقولي: «أماني»!.. نعم ما زلتِ تخاطبينني هكذا، رغم أنَّ اسمي هو «أمان» بدون الياء، لكنني أحبُّ أن أسمعه منك، لأنه لا يأتي من حنجرتكِ لا بل يخرج من قلبك، وأنتِ تقولين لي: حبيبتي، عندي مناسبة في مكان ما، واحتفالٌ بيوم المرأة أو غيره، و«بدي إياك تحضري وتكتبيه للجريدة»، أحيانًا كنتُ أتقاعس أو أركن نفسي للكسل وعدم الرغبة في الحضور، لكنني كنت أغيِّر ترتيباتي ونفسيتي لأكون معك، ولا أضيع فرصة الالتقاء بك؛ فمثلكِ مكسبٌ وإضافةٌ وتاريخٌ يجب ألا يغادرنا..

سيدتي.. سيدة العمل وسيدة العطاء والطاقة الإيجابية، لن أسألك كم تبلغين من العمر، ولن أقف عند عتبات السنوات أو عدِّ الشَّيْب في الرأس، أو تاريخ حياتك، أو حتى محطات

نجاحك أو بصماتك.. لكنْ، أقول إنَّ هيفاء البشير «أم مازن» هي قصة حياة، قصة أجيال، قصة عمان والسلط، وفلسطين أيضًا،.. وهي صوتٌ ينبض بكلِّ شيء.

اسمحي لي سيدتي أن أعود لمقالي الذي كتبتُه من قلبٍ يعجُّ بالقهر، في مناسبة كانت الأكثر وجعًا في حياتك، عندما دقَّت ساعة القهر والموت والقدر معًا لتعلن فقدان بِكركِ وسندكِ.. يومٌ حزينٌ أطاح بنا، لكنَّكِ أنتِ، وأنت ترقبين الآلالف يتدفقون إلى خيمة العزاء، كنتِ الأقوى والأكثر صبرًا، حتى في لحظة الموت القسريّ صدَّرْتِ لنا جميعًا قصة نجاح وقصة امرأةٍ من حديد، وقلبًا صخريًّا ينبض بحُبٍ لا يشبه شيئًا..

سيدتي.. أم مازن في يوم المرأة اليوم أنت كل النساء، وأنت مدرستنا التي لا نريدها أن تغيب، منك نستمدُّ وهج العمل والعلم والثقافة واللسان المفعم بالحب، وفي يوم المرأة التي أسهمتِ بتوطينه في الأردن، لك كل العزاء والسند والدموع التي بكت ابنك البكر، فعيناك لطالما تجرعتا الفقدان، وعاشتا سنوات من العذاب، لكنهما صنعتا رجالًا.

في يوم المرأة، ننتظر عودتك إلى ساحة الإنجاز، أنت سيدة الأماكن الجميلة، والموقف الدافئ.. هيفاء البشير، مصابك جلل، وفي يومك لتتذكري دومًا أننا جميعًا أبناؤك.. ننتظر قوتك ونراهن على ثباتك وصبرك، فقد تعلمنا جميعًا منك أنَّ النساء قوة وصبر ومثابرة، وأنتِ دومًا أصلُ كلّ حكايات نساء الوطن».

سيدتي.. أم مازن، اسمحي لي أن أكون بين يديك بنتًا أتمنى أن تكون قد أعطتكِ ما تستحقين من كلمات تليق بك، اسمحي لي أن أكون صحفية وإعلامية تشرَّفَتْ بإجراء لقاءاتٍ مع حضرتك، وقدَّمتْ للقارئ صورًا حقيقيةً عنكِ، واسمحي لي أن أكون بين يدي الأم صاحبة الضحكة الدافئة والصوت الشجيّ، لأُقبِّل جبينك ورأسك، لأنك منحتني شرف أن أعتلي هذه المنصة الكريمة لأقول كلمة قلبٍ فيك.

أطال الله في عمرك وسنوات بقاءك.. أطال الله في عطائك ووجودك.. وأدام الضحكة في وجهك، والحب في قلبك، والعطاء في روحك، وأبقى البياض في يديك لتمتدَّا لكلِّ محتاجٍ للمساعدة أو لمسة عطف، أو حتى كلمة نصح..

مثلك لن يغيبَ.. ومثلك لا يمكن أن يكون نقطة عابرةً، ومثلكِ أيضًا يجب أن يبقى أيقونة للأجيال، لأنَّ من يعلم عنك يفقد الكثير من مقومات الحياة السلبية، ويزج نفسه بألق التاريخ والحضارة،..

سيدتي.. أمَّ عمان والسلط.. أمَّ مازن.. من خلال نظراتك التي أراها الآن، وهذا الشعاع الخجول المتواضع في عينيك الجميلتين، المفعمتين بالحب والصدق، ومحبة كلِّ من يجلس إلى جانبك، وكل من هو بعيد عنك..

نقول: شكرًا «شومان» الثقافة، شكرًا شومان المؤثرة، تلك المؤسسة التي صنعت للثقافي معنى، وإطارًا، وشكلًا إيجابيًّا يعشقه أهل الأردن والمنطقة والعالم..

شكرا على الدعوة لنقول شهادة حب في سيدة العام وضيفة العام وصوت العام ووجعه ونبضه الإيجابي، أمًّا وصديقةً وأختًا للجميع، هيفاء البشير!!

أطال الله في صدى صوتك ونُصْحكِ ووجودك، ومَنَحَكِ مزيدًا من الطاقة لتبقي تعتلين سيدة الحب على عرش القلوب والفكر والأيام والتاريخ..

هيفاء البشير.. شكرًا لأنَّكِ أيضًا آمنت بقلمي وصوتي وحضوري..

نعتز ونفتخر بك..

سنديانة راسخة الجذور

جمان مجلي [1]

كيف لنا أن نجمع أطراف مسيرةٍ مليئة بالإنجاز والعطاء؟!

كيف لنا أن نستعرض بعضًا منها بشوقنا للعمل النبيل والأهداف التي تتحقق لتبقى متوهجةً تشدُّنا بروابط الإخلاص للأهداف، التي تنبض بالطموحات الكبيرة لمستقبل أفراد الوطن، في إطار العمل الجاد المنتمي لعالم العلم المواكب لكلِّ ما هو مفيد، الحريص على مُثُلٍ سامية ومبادئ موروثة؟!

بعض الشخصيات إذا أردتَ الحديث عنها تحتار من أين تبدأ، خاصةً إذا كنتَ مواكبًا لبعض نشاطاتها، فما بالك إذا كانت سنديانةً عميقة الجذور والفروع مثل السيدة هيفاء البشير؟!.. إذا أردتُ وضع عنوانٍ لهذه السيدة، فمن الممكن أن يكون (أهداف وإنجازات) أو (مثابرة وعطاء) أو (مسيرةٌ ذللّت الصعاب).

بدأتْ علاقتي بالسيدة هيفاء، التي كانت تدرك أهمية الإعلام في تسليط الضوء على القضايا المهمة للتأثير على الرأي العام، وكسب التأييد للقضايا التي تسعى لتحقيقها، عندما كنتُ أعمل في إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية، ولا تزال مخيلتي تختزن صورة السيدة هيفاء وهي تدخل من باب الإذاعة متحمسةً للحديث حول جهودها في بناء مبنى الأَسرّة البيضاء، وكيف تتواصل مع المصانع والمهندسين والمقاولين والمسؤولين، من أجل إقناعهم بالفكرة وأهميتها ومدى الحاجة إليها، وبالتالي التبرع للمساعدة، وكيف ذلَّلت

(1) إعلاميّة وناشطة في حقول المرأة والشباب.

الصعوبات وحرصت على أن تكون كلُّ الأمور تحت مظلة القانون، مُؤمنةً بالعمل التشاركي.

وتعددت اللقاءات الإعلامية عندما كانت تترأس الاتحاد النسائي الأردني أولَ رئيسة له، وعملت مع عضوات الاتحاد على مجموعة من الأهداف التي لا تزال حتى الآن عناوين لعمل الاتحاد، ومنها تمكين المرأة اقتصاديًّا وقانونيًّا وسياسيًّا، وتشجيع المشاريع الإنتاجية والمعارض، والمشاركة المجتمعية في قضايا الوطن، وورشات العمل، والمحاضرات، والندوات، والقضايا الوطنية بامتياز.

وجميعها كنا نناقشها إعلاميًّا؛ فمسؤولية الإعلام أكبر من أن يكون فقط مرآةً تعكس ما يجري، وإنما كان دورُهُ المشاركة في القضايا والنشاطات المختلفة ومناقشة أهميتها وأبعادها وتأثيرها على مسيرة الوطن وإنسان هذا الوطن؛ فالوطن هو جذورنا وهو امتدادنا عبر الزمان والمكان، ولا تُبنى الأوطان بالكلام فقط، وإنما بالعمل والتفاني في العمل، ولا تتقدَّم إلا بالعَرَقِ والفكر والعلم والمبادئ السامية.

قلتُ في البداية إني سأتحدث عن أحداث عشتها وكان للسيدة هيفاء دورٌ فيها، ومن ضمنها مشاركاتها في المؤتمرات الدولية، فقد كان لي شرف المشاركة في أحدها ضمن الوفد الإعلامي الرسمي في مؤتمر المرأة الدولي في بكين، الذي انعقد عام 1995. وكان الوفد الأردني برئاسة سمو الأميرة بسمة وكانت السيدة هيفاء ضمن الوفد الشعبي لهذا المؤتمر الذي أعدَّت له اللجنة الوطنية الأردنية لشؤون المرأة إعدادًا مُكثَّفًا استغرق حوالي السنة. هنا أودُّ أن أسجِّل مشاهداتي وتقديري لمشاركتها الفعّالة بعيدًا عن ترف المؤتمرات، ونقاش القاعات بكلِّ تواضعٍ وحماس، للتفاعل مع باقي الوفود الشعبية، حاملةً في وجدانها قضايا المرأة الأردنية، وتبنيها للاستراتجية الوطنية الأردنية ضمن محاورها كافة بعمق ورؤية واضحة متفهمة.

جهودٌ استحقَّت الكثير من الجوائز والأوسمة على المستوى المحلي والعربي والدولي لدورها التطوعي الريادي في البناء والتوجيه والعطاء؛ فعلى مستوى كبار السن حصلت على وسام الاستقلال لجمعية الأَسرّة البيضاء عام 1975، وعلى مستوى الأطفال حصلت على جائزة الملكة نور لمحور القصة القصيرة لأدب الأطفال عام 1997، فقد أصدرت عشر قصص أطفال باسم (الفرح والسعد)، وبهذه المناسبة أشير إلى أنها أصدرت عشر قصص أطفال أُخرى باسم (الفرح والسعد) عام 2004، ومجوعة من عشر قصص بعنوان (أنا وسما) صدرت عام 2015 موجهة للأطفال بعد سنِّ اثني عشر عامًا، وعلى مستوى البيئة استحقت جائزة الملكة نور للحدائق في أمانة عمان الكبرى عام 1995، وجائزة الأُسرة المثالية في العالم العربي للإنجاز الأسري في 31/ 1/ 2006، من الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم في دبي بمناسبة مهرجان دبي للتسوق، وجائزة الأُسرة العربية في الدورة الثالثة، وجائزة إمارة الشارقة من سمو الشيخ سلطان القاسمي 2015، وجائزة الشيخ سلطان القاسمي للعمل التطوعي في رعاية السادة كبار السن- الشارقة 2016، وجائزة الملك الحسين للعطاء المميز من الدرجة الأولى من جلالة الملك عبد الله الثاني ابن الحسين في عيد الاستقلال الأردني الحادي والستين في 24/ 5/ 2007. ودوليًّا حازت على شهادة ودرع للمشاركة في الخدمات الصحية التطوعية من منظمة الصحة العالمية بمناسبة مرور 25 عامًا على افتتاح مكتب الأردن في 7/ 4/ 2010، وجائزة أديليد ريستور، المركز الثقافي في روما تقديرًا للعمل الاجتماعي عام 1977، وجائزة الملك حسين للتميز العلمي، الجامعة الأردنية، كلية التمريض عام 1983 لحصولها على المرتبة الأولى على دفعتها، والعديد من شهادات التقدير والجوائز التي لا مجال لتعدادها، ويمكن الاطلاع عليها من خلال السيرة الذاتية.

إنها فعلًا سنديانة عميقة الجذور والفروع، انطلقت بإيمانٍ عميق عبر آفاق مدروسة لخدمة الأُسرة الأردنية، بكلِّ تفاصيلها وبكلِّ ثقة، مسلحةً بالعلم والعزم والتفاؤل.. ثلاثية

حققت الكثير من الأهداف ضمن الوطن الذي تعشق،.. آمنت بأنَّ حُبَّ الوطن يُترجم بالعمل والإنجاز، لا بالأقوال والتنظير؛ فالحضارة فعلٌ لا كلام، والسيدة هيفاء البشير حققت الكثير من خلال مؤسسات المجتمع المدني، فمعظم مواقفها اكتسبتها بالانتخاب وقناعة الناس وثقتهم بدورها وإنجازاتها. وستبقين سيِّدتي لكلِّ الأجيال مصدرًا للإلهام.

البشير والحركة النسائية الأردنية

آمنة الزعبي [1]

إنَّه لمن دواعي سروري واعتزازي أن اتحدث من هذا المنبر الوطني الموقَّر حول تجربةٍ رائدة من تجارب رائدات العمل التطوعي والتنموي والنسوي، الأستاذة هيفاء البشير أمدَّها الله بالصحة والعافية.

وعند الحديث عن تجربة النساء الرائدات الملهمات، فقد قمنا نحن باتحاد المرأة الأردنية بالتعامل مع هذه التجارب وتوثيقها من خلال مركز إميلي بشارات للدراسات والتوثيق، فتاريخ الحركة النسوية وتاريخ النساء بشكلٍ عام ما زال تاريخًا شفويًّا وغير موثَّق رسميًا بما يليق وينصف هذه المسيرة النيِّرة للنساء.

ومن خلال هذا التوثيق نستخلص أنَّ النساء الأردنيات الرائدات عبر مسيرة نضالهنَّ من أجل العدالة والتقدم والمساواة وبناء الوطن لم يَكُنَّ فقط مشاركاتٍ بل كُنَّ صانعاتٍ للتغيير في مجتمعاتهن وعلى كافة الصعد، وشاركن بشكلٍ فاعلٍ في بناء الدولة الأردنية الحديثة مؤثِّراتٍ ومتأثراتٍ بكلِّ ما مرَّ بالوطن والمنطقةً من أحداث؛ هكذا تقول كلُّ النتائج والإنجازات، وهذا ما ينطبق على دور ومسيرة الرائدة الأستاذة هيفاء البشير وثلَّةٍ كبيرة من رفيقاتها وزميلاتها الرائدات في الحركة النسوية الأردنية، اللواتي أسَّسنَ وعملْنَ معًا وناضلْنَ نضالًا طويل الأمد من أجل نَيْل المرأة لحقوقها، وبناء مجتمع العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص، وبناء نهضة هذا الوطن، نذكر منهنَّ المرحومة إميلي بشارات، والمرحومة لمعة بسيسو، والعديد من الرائدات، ربما في الجيل الأول أو الثاني، ما زلن على قيد العمل

(1) عضو المكتب التنسيقي للشبكة العربية للتنمية/ ناشطة في شؤون المرأة.

والعطاء: هيفاء البشير، إميلي نفاع، صبحية المعاني، أسمى خضر، وعبلة أبو علبة، وليلى نفاع،.. وغيرهن الكثير من اللواتي نتمنَّى لهنَّ العمر المديد ودوام العطاء.

أودُّ هنا أن أتحدث عن تجربة السيدة هيفاء البشير، من خلال ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: السيرة الذاتية ومحطات في تجربتها التطوعية، وأقتبس في مركز إميلي بشارات عام 2009 أولًا حديثها عن الحركة النسوية الأردنية واتحاد المرأة من خلال ما قالته في هذا المركز:

عام 1944 كان اتحادٌ نسائي وجمعية التضامن، وكان لجلالة الملكة المرحومة زين دورٌ بأن تشترك في لقاء في القاهرة لبحث القضية الفلسطينية.

ثم كانت هناك في عام 1948 حركة جيدة في الأردن لمساندة المرأة الفلسطينية المُهجَّرة، وفي عام 1950 كان هناك دورٌ جيد للمرأة في الاتحاد النسائي.. عام 1957 جُمِّد مثله مثلَ كلِّ التنظيمات الأخرى، وعام 1974 أُعيدت له الحياة، لكنَّه لم يُفعّل بسبب الاختلاف، ولم يفعّل إلا عام 1989، لكنْ، حاليًا وأنا أراقب الحقيقة أحيّي اتحاد المرأة الأردنية بالقيادات التي توارثته، وترأَّسُهُ السيدة آمنة الزعبي ونشاطاتها في كلِّ الأصعدة: في دعم النضال العربي، ودعم المرأة داخل الأردن، ونجد له وجودًا. أنا شخصيًا لم أُدعَ يومًا لأيِّ نشاطٍ بصفتي الشخصية، ولكن تمَّت دعوتي بصفتي رئيسة جمعيات، وهي جمعيات خيرية إنسانية، لكنْ، بصفتي الشخصية لم أتخلَّ يومًا عن أيِّ دعوةٍ لهذا الاتحاد، لأني أحترم دَوْرهُ وعمله.

السيدة إميلي بشارات تقف لوحدها وتقول ما يجب أن يقال، هذه جرأة؛ فنحن الآن في عام 2000 يمكن أحيانًا أن نعجز عن أن نقف مثل إميلي المبادرة، فهي أول امرأة تعمل في الحقوق وكانت هذه الأمور منوطة بالرجال، وكانت أول امرأة تطالب بالانتخاب، وأن تذهب لأمريكا وتتكلم في مواضيع القضية الفلسطينية، ولها دورٌ قياديٌّ يتصف بالجرأة

والأصالة والاستناد إلى أسرتها العريقة وإيمانها بدورها الذي نُكبره جدًّا؛ فهي لم تخشَ أمرًا، ولقد اعتمدت على قدرتها وقيادتها وتاريخها وعلى علمها بأن تقود حركه نسائية.

وهناك العديد من الرائدات، وكلُّهنَّ صديقاتي، لكنْ، لا أستطيع أن أذكرهنَّ جميعًا، لكي لا أنسي أيّ واحدةٍ منهن.

وقد ساندتني السيدة لمعة بسيسو وهي في العراق لأدعم جمعية الأَسرَّة، وهي من السيدات الفاضلات، والسيدة سلوى زيادين وإيملي نفاع في المشاركة بمؤتمر برلين الشعبي وعام المرأة الدولي، ولهنَّ دورٌ في الاتحاد الديمقراطي وفي اتحاد المرأة الأردنية.

ثانيًا: دورها في الحركة النسائية. وكما هو واردٌ في التوثيق أعلاه كانت السيدة هيفاء قد قالت إنها على علاقة وثيقة مع رائدات الحركة النسائية، مثل المرحومة إميلي بشارات والمرحومة لمعة بسيسو، وتشاركت معهنَّ في كثيرٍ من محطات العمل وفي دعمهنَّ في تأسيس العديد من الجمعيات، مثل جمعية الأَسرَّة البيضاء وغيرها، وناضلنَ بشكلٍ شجاع ومؤثِّر من أجل نيل المرأة حقّها في المواطنة والمشاركة الفاعلة، ولقد عَبَرْن الطريق بحقٍّ أمام الأجيال اللاحقة من رائدات العمل، وفَتَحْن الباب أمام المرحلة اللاحقة في العمل والنضال الوطني والنسوي.

لقد كان لي شرف التعرف عليها والعمل معها في عقد التسعينيات من القرن الماضي من خلال العمل المشترك مع الفعاليات والهيئات النسائية والشخصيات النسائية، فقد كانت تلك المرحلة تمرُّ بالأحداث المهمة على المستوى الوطني، في فترة بداية المرحلة الديموقراطية وما تُمليه من استحقاقات، وكذلك على صعيد المنطقة والمحيط الملتهب من احتلال فلسطين وما يُرتكب بحقِّ الشعب الفلسطيني من جرائم، وقيام الانتفاضة الثانية للشعب الفلسطيني، وكذلك حصار العراق الشقيق والعدوان المتكرر على شعبِهِ، إلى احتلال جنوب لبنان.

فكلُّ هذه الظروف فرضت على النساء والحركة النسائية نضالًا مزدوجًا في مسار هذا العمل من أجل تحقيق حقِّ المشاركة الفاعلة للمرأة في المسيرة الديموقراطية وانتزاع المزيد من المكاسب، إذ كنَّا نجتمع معًا ونخرج بالعديد من المذكرات والمطالب.

كانت هناك حركة قوية ومؤثِّرة، وكانت السيدة هيفاء دائمًا في طليعة أيِّ وفدٍ تُشكِّله الهيئات النسائية، وقد زُرنا معًا كلَّ صُنَّاع القرار بدءًا بالديوان الملكي العامر ورئاسة الوزراء ومجلسي الأعيان والنواب وكافة مراكز صنع القرار، وكنّا نحمل مطالب عادلة للمرأة الأردنية وحقِّها في المشاركة بمواقع صُنع القرار والوصول إلى البرلمان بموجب قانون انتخابٍ عادلٍ، هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ ثانية لم تكن النساء الأردنيات بعيداتٍ عما يجري في المحيط، وخصوصًا ما يتعلق بالقضية الفلسطينية وما يقوم به الاحتلال من جرائم بحقِّ المرأة الفلسطينية والشعب الفلسطيني؛ فقد كُنَّا على تماسٍ يوميٍّ مع الأحداث وكانت تجتمع الهيئات والفعاليات في بيت المناضلة المرحومة عصام عبدالهادي، حيث كانت السيدة هيفاء أوَّل الحاضرات دائمًا، وكنا نلتقي للتخطيط لفعاليات تتصدى للأحداث الجِسام التي تمرُّ بها المنطقة ولجرائم الاحتلال، وهي إمّا لكتابة البيانات والمذكرات أو لتنفيذ وقفاتٍ واعتصاماتٍ أمام هيئة الأمم والصليب الأحمر والسفارات المعنية، فنسلمها المذكرات التي تعبِّر عن الاحتجاج ورفض ما يجري بحقِّ شعوبنا من جرائم وتعسُّفٍ، وقد كانت حاضرةً دائمًا مع المرحومة عصام عبدالهادي والفعاليات النسائية للدفاع عن فلسطين وشعبها، وما زالت.

أمَّا البُعد الثاني، فهو علاقة السيدة هيفاء مع اتحاد المرأة، فقد ذكرت في توثيق تجربتها أنها كانت دائمًا على علاقةً وثيقة مع الاتحاد منذ تأسيسه، وربَطتْها مع زميلاتها إميلي بشارات وعضوات الاتحاد آنذاك علاقة تعاون ودعمٍ ومساندةٍ لها في تأسيس جميعاتٍ عدة.

لكنْ، فيما بعد تم تجميد الاتحاد وإنشاء الاتحاد النسائي الأردني العام، وبقي اتحاد المرأة لحين عودة الحياة الديموقراطية، وقد كان لي شرف التعرُّف عليها والعمل معها.

وفي أواخر التسعينيات كان اتحاد المرأة يُنفِّذ العديد من البرامج الرائدة والحملات الوطنية، إمَّا لتعديل منظومة القوانين المجحفة ضد المرأة أو بناء تحالفات وطنية من أجل مكافحة الفقر أو تعزيز المجتمع المدني، أو عمل فعاليات للتضامن مع المرأة الفلسطينية ودعم حق العودة. وقد كانت السيدة هيفاء البشير في طليعة المُشاركات والمشاركين، وكانت تعطي وزنًا وثِقلًا، فيثرى التحالف أو النشاط بوجودها ونقاشاتها، وأذكر أننا كنا معًا في التحالف الوطني من أجل مكافحة الفقر، وذهبنا معًا لرئاسة الوزراء والبرلمان وسلمنا مذكراتٍ توضِّح وجهة نظر المجتمع المدني ومقترحاته لمواجهة الفقر.

شهادات حول السيدة هيفاء البشير

على ضوء قنديلها نقرأ الوطن

جريس سماوي [1]

على هدأة ابتسامتها المطمئنة، ونظرة عينيها التي تشعرك بأنك صديق قديم، وإيمانها بما أنجزت وبما تنجز، وثقتها العالية بأنها مُحاطة بالتقدير والإعجاب، تستقبلك هذه المرأة وكأنها تعلن عليك ميثاقها من المحبة والودّ والإيمان بالإنسان والوطن والتفاني في الخدمة.

يحار المرء عند الحديث عن الأستاذة هيفاء ملحيس البشير؛ فهذه المرأة هي عدة شخصيات مركبّة في شخصيةٍ واحدة. هي عدة نساء في امرأة. فمن أيِّ بابٍ سأدخل إلى عالم هذه المرأة التي تفوقت على نفسها وعلى صعوبات وعقبات ومسارب ضيقة ضبابية في مسيرتها من أجل أن تحقق رسالتها في هذه الحياة تجاه وطنها وأهلها ومبادئها.

هي ابنة نابلس التي انتمت إلى السلط، وهي التي تلقّت التعليم في القدس وتابَعَتْه في عمان، وهي التي مثلّت إنموذجًا حيًّا راقيًا للشخصية الأردنية الحديثة في امتداداتها الفلسطينية والعروبية، وكانت صورةً لشخصية بلاد الشام الثرية بمرجعياتها الوطنية والإنسانية.

عرفتُها منذ مدةٍ طويلة؛ ناشطةً في أكثر من حقلٍ ومجال. فعندما عملتُ في التلفزيون الأردني في التسعينيات، وكنتُ معنيًّا بمتابعة النشاطات الثقافية والفنية في المملكة، أذكر أنني كنت أُغطّي كثيرًا من النشاطات التي تقوم بها وتُشرف عليها هذه السيدة الاستثنائية.

تُعتبر هيفاء البشير ابنة المُثلث الجغرافي الشآمي المدني؛ نابلس، والقدس، والسلط، الذي شكّل محورًا لحركة بشرية وتنقلاتٍ للعائلات والأفراد من أجل التجارة والتعليم

(1) شاعر ووزير ثقافة سابق.

والهجرة. وقد شكلّت مدن هذا المثلث منطلقًا لحركةٍ أوسع شملت مدنًا شاميةً أخرى، كدمشق وحلب وطرابلس لبنان ثم عمّان. لقد اختزلت هيفاء البشير في شخصها وحركتها ملامح هذه التركيبة الفريدة والغنية، وكانت تعبيرًا حقيقيًّا عن مكونات المجتمع الأردني الحديث الذي تكوّن من مفردات هذا التنوع الثريِّ في إطار الوحدة والاندماج المجتمعي.

من دار المعلمات في نابلس إلى التدريس في القدس ثم إلى السلط البيت النهائيّ لهذه الرائدة عبر مسيرةٍ طويلة، كانت فيها أم مازن تتبع قلبها وتنثر الحُبَّ وحبّات العرق في كل موقعٍ عملت فيه وشغلته وتحركت في مساحته.

هي التي حصلت على «المترك» من القدس عام 1948 ولم تكتفِ به، لتعود بعد مرور سنوات طويلة فتعاود الجلوس على مقاعد الدرس طالبةً في الجامعة الأردنية وتتخرج فيها عام 1983، ثم تحصّل الدبلوم العالي عام 1988، وقد كانت قطعت طريقًا طويلًا من مسيرتها لم يقف عائقا دون طلبها العلم، حتى وهي في مرحلة عمرية متقدمة.

لقد شملت اهتمامات هذه الرائدة ونشاطاتها وعملها مساحات مختلفة ابتداءً من الكتابة للطفل وانتهاءً بخدمة كبار السنِّ مرورًا بالعمل التطوعي والسياسي ولجان المرأة ومؤسسات المجتمع المدني في شؤون الصحة والأعمال الخيرية. وهي التي ألَّفت للأطفال كتبًا تضمُّ بين دفتيها الفرح والسعادة وحكايات الجدة واليوم الماطر وقوس قزح، حتى إذا ما لملمتْ أوراقها كتبتْ أيضًا رحلتها مع الحياة والناس.

كان عام 1977 عامًا حاسمًا وحزينًا في حياة هيفاء البشير وعائلتها؛ إذ فقدت رفيق رحلتها وشريكها في الحياة الشهيد الطبيب محمد البشير، في الحادث المروّع الذي استشهدت فيه المغفور لها جلالة الملكة علياء الحسين وآخرون، وبهذا فقدت هذه السيدة الحالمة المصممة على التفوق سندها الذي كان يعينها على المضي قُدمًا في تطوير ذاتها وتعلُّمها وخدمتها للمجتمع. كان الشهيد محمد البشير يفخر بزوجته ويرى فيها مثال المرأة

الأردنية التي تتجاوز المعيقات وتضع كتفًا إلى كتف مع الرجل من أجل بناء المجتمع وخدمة الوطن.

لم تكن هيفاء البشيرمن أولئك النسوة اللواتي يسكُنَّ إلى قَدَرِهِنَّ ويَلزمن بيوتهن في حالة كهذه، بل رأت ذلك تمجيدًا لروح الشهيد وتكريمًا له، فعليها واجب الاستمرار في مسيرتها، إذ كانت تَحتُّ الخطى من أجل تحقيق المُثل والمبادئ التي آمنا بها وعملا من أجلها.

هي سيدة الخدمة العامة لكلِّ الأجيال. قدمتْ للطفولة كثيرًا من الجهد ومن عصارة أفكارها وإبداعاتها في الكتابة والتأليف. وقدَّمت وما تزال لكبار السن خدماتها من خلال تأسيس الجمعيات والمؤسسات الناجحة التي أصبحت جزءًا من البنية التحتية الخدماتية لهذه الشريحة من المجتمع التي قدَّمت للوطن كثيرًا من الجهد والخدمة.

لقد أسست البشير وأدارت جمعية الأَسرّة البيضاء ومنتدى كبار السن وجمعية التأهيل النفسي ومركز الصفصاف، وشغلت عضوية مجالس عديدة ابتداءً من المجلس الصحيِّ العالي مرورًا بمجلس أمانة عمان والمجلس الوطني الاستشاري واتحاد الكتاب والاتحاد النسائيِّ الذي كانت إحدى العضوات المؤسسات فيه، وانتهاءً بكونها رئيسة ائتلاف مؤسسات المجتمع المدني الصحي منذ عام 2011، وعدد آخر من الجمعيات والمؤسسات التطوعية.

إنها مؤسسةٌ سائرةٌ على قدمينِ، بل عدة مؤسسات في امرأة واحدة. هي أمُّ مازن،.. الأم التي ربَّت ورعت عائلةً قدَّمت للوطن خيرة الأبناء، ورفدت الإدارة الأردنية بكفاءاتٍ من الرجال الذين يحملون دأب وحماسة وانتماء الأب الشهيد ومواظبة وإبداع وإصرار الأمّ التي لم تكلّ أو تملّ أو تتعب من العمل الذي أحبَّتْ وعشقتْ، ومن الانتماء لتراب الوطن ولذكرى الشهيد الذي أحبت. قامت بكلِّ ذلك من أجل الإنسان الأردني، لأنها آمنت بهذا الإنسان وبهذا الوطن وقيادة هذا الوطن، فكان أن حازت التكريم تلو التكريم والجوائز والأوسمة.

وما عسانا نضيف إلى تكريمها من إضافةٍ، إلّا أنْ نرفع قلوبنا ونبضنا وحُبَّنا وإعجابنا إلى مقامها الأعلى، مقام الأم العظيمة، ونقول شكرًا لك يا أمَّ مازن؛ على ضوء قنديلك نقرأ الوطن. شكرًا لك يا أمّنا.

هيفاء البشير: الإرادة والالتزام والإنجاز

عبد اللَّه الخطيب [1]

حديثي عن السيّدة هيفاء البشير هو حديثٌ عن واقع مشاهدة امتدت ما يقرب من نصف قرن، فهذه شهادة رفيق درب للسيدة التي هي واحدة من نوعها، بإنجازها وعملها الذي لم يتوقف منذ نعومة أظفارها، وهي تعتبر من جيل الرواد الذين كان العطاء ديدنهم في مجال العطاء والخير.

هذا الجيل الذي للأسف الشديد كما يبدو، لن يتكرر، هؤلاء الذين تركوا بصمات واضحة على ثقافة الخير والتطوع، وتركوا منارات شاهقة تتحدث عن عطائهم وإنجازاتهم التي تمثلت في تشييد المستشفيات والجامعات والكليات والمدارس وبيوت الضيافة ومراكز الرعاية، والذين أوقفوا من حرِّ مالهم على أعمال الخير التي من الصعب حصرها.

هذا الجيل الذي مثَّلَه الرواد، الذين وضعوا حجر الأساس للطريق الذي اختطته السيدة المُكرَّمة في هذا اليوم، والتي هي بألفٍ مما يعدون، بعضهم قضى نحبه، وبعضهم ينتظر، وما بدلوا تبديلًا، جيل الحاجّة عندليب العمد، معزوز المصري، وعصام عبد الهادي، وهند الحسيني أم السكك، ومدام السكك، وعبد الخالق يغمور، ومحمد علي بدير، وعبد الرحمن خليفة، ومصباح الزميلي، وظافر المصري، وضيف الله الحمود، ووهبة تماري، وقسطنطين قّرش، والدكتور أحمد أبو قورة، وإسعاف شقير، ونصرت البيطار، ومحسن

(1) مشرّع وباحث ومؤلف في منظمات المجتمع المدني، مدير عام المؤسسة العربية للدراسات والأبحاث والإنتاج الإعلامي.

الحباشنة، وصبيح المصري، ومحمد الطاهر، والقائمة طويلة لا تنتهي من هؤلاء الكبار الذين نفتقدهم وندعو بطول العمر لمن هو بيننا اليوم، والذين لم نعطهم حقَّهم في التكريم.

وما مركز الأمل للسرطان الذي أصبح يطلق عليه اسم مركز الحسين للسرطان، كما هي حال المستشفى الإسلامي في عمان ومستشفى المقاصد في القدس، ومستشفى الهلال في عمان، والمستشفى الأهلي في نابلس ومستشفى الهلال في الخليل، وجامعة النجاح وجامعة بيرزيت وجامعة الخليل ورابطة الجامعيين، والكلية الإسلامية، والمدرسة الأرثوذكسية.. إلا نماذج لعمل هؤلاء الكبار.

وإذا ما جاز لي أن أُحدّد معالم الشخصية التي نكرِّمها في حياتها، والشكر موصول في هذه المبادرة لمؤسسة عبد الحميد شومان، والتي يحلو لي أن أصفها بألفٍ مما يعدون، فهي ابتداءً:

واحدة من نوعها one of a typo، بمعنى أنه قد لا نجد من يشبها عند تقييم عملها، ومن تعايش معها في عملها يدرك أنها تعمل بطاقة فيلق، فهي دومًا توصف بأنّها تحمل عشرات البطيخات في يدها، وهي المدرسة التي تفوقت على نفسها في سن مبكرة.

وهي الزوجة وربة البيت الأم التي أعطت كل الحب والاهتمام لكلٍّ من حولها، وهي السيدة التي اختار القدر أن يمتحنها في استشهاد زوجها ورفيق دربها وهي في بداية حياتها، وجاء في الحديث أنَّ الله يمتحن محبيه.

وفي الوقت الذي كان من المتوقع أن تنهار وتنتهي حياتها كونها أرملة، فإنها خرجت من المصيبة أقوى، وواجهت حياتها بهمَّة آلافٍ مما يعدّون، وقدمت للوطن ستة رجال أشهد بأنهم من خيرة الخيرة خلقًا وعلمًا وإنجازًا، وللأردن أن يعتز بكلٍّ منهم: الدكتور مازن، والدكتور عبدالرحمن، والدكتور بلال، والدكتور عوني، والدكتور صلاح، والمهندس عامر.

وامتحنها الله بفقدان الدكتور مازن الذي قال فيها: «إنها أُمُّهُ التي آمن بدورها في مجتمعها الصغير ورفضت أن تعيش على الهامش، قبلت الاختلاف واحتوتْه، تعاملت مع الصعاب بروح رياضية، فما زادتها الكبوات إلا عزمًا وتصميمًا وحكمة، كان كلُّ يوم يشكِّل لها تحديًا من نوع جديد، رفضت أن يأتي صباحٌ بغير مشروعٍ جديد أو برنامج عمل زاخرٍ لذلك اليوم، سيدة لم تكن لتتوانى عن سدِّ الثغرات».

والشخصية التي نكرمها اليوم، نذرت نفسها للأعمال التي ليس من السهل على البعض أن يعمل أو يفكر في التطوع من أجل إنجازها، وقد كانت السبّاقة إلى الانغماس فيها.

وجديرٌ بالإشارة هنا إلى أنَّها عندما أعطت وصبّت اهتمامها على التمريض، الذي كاد يمثِّل في النصف الأخير من القرن السابق التحدي الحقيقي لتوفير الكوادر التمريضية المؤهّلة علميًّا وعمليًّا، فإنها وهي الأُمُّ التي أمامها مسؤولية رعاية ستة أطفال، قد التحقت بالجامعة الأردنية- كلية التمريض وحصلت على درجة البكالوريس لتكون نموذجًا يحتذى Role Model في تجاوز ثقافة العيب بالنسبة لعمل النساء في مجال التمريض، ولم يكن ذلك عملًا بسيطًا في حدِّ ذاته، وإنما فتح الباب مشرعًا أمام الفتيات للالتحاق بهذه المهنة الإنسانية. وترجمت ذلك بتأسيس جمعية الأَسرّة البيضاء التي مثَّلت نقلةً أردنية في مجال التمريض ليُكمل مسيرة الطب في الأردن، وامتدَّ عملها من خلال جمعية الأَسرّة البيضاء التي استهدفت مساعدة المستشفيات الحكومية من بعد إنساني، ودعم مهنة التمريض بكل الوسائل، والدعاية بين خريجات المدارس الثانوية، وأكملت عملها بإقامة دار الضيافة للمسنين.

وامتدّ نشاط سيدتنا المكرمّة التي هي بألفٍ مما يعدّون لتأسيس الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي، لتقديم الخدمات والتعامل مع المرضى النفسيين ليعود الفرد منهم قادرًا على رعاية نفسه وأسرته والاندماج في المجتمع.

ولم تتوقف عند هذا الحدِّ، فاستكمالًا لرسالتها تم إقامة منتدى الرواد الكبار الذي استهدف استقطاب السادة كبار السنِّ والمتقاعدين والرواد؛ ليقضوا نهارهم بأنشطة ممتعة مع برامج مسلية وأخرى ثقافية ورحلات، وتناول وجبات غذائية مناسبة ليعودوا في آخر النهار إلى بيوتهم.

وفي أحاديثنا المتصلة في الأمور العامة، كنت أحرص على الالتقاء بالسيدة هيفاء البشير، وكنت أستمع إلى طموحاتها التي لا تتوقف وكنت أشفق عليها، فهي لم تعش عمرها مثل باقي النساء، وأدعو الله لها أن يطيل بعمرها، وأن يمدّها بموفور الصحة والعافية دائمًا، فما قامت به هو إنجازٌ بخمسة أضعاف عمرها.

أم مازن ظاهرة في تاريخ الأردن الحديث؛ فهي المربِّية والمعلمة والأم والأديبة والشاعرة والفنانة والرائدة والقائدة والملهمة، وهي كل ذلك في شخص.

هاجسها كان الإنجاز المتقن الذي كان دافعًا لأن لا تتوقف وألا تتقاعد، طالما أنَّ الله وهبها هذه القدرة وهذا التميُّز على الخلق والإبداع، واذا ما كانت سيدتنا، التي لم تهمل من حولها، فإن مَن حولها بالمقابل احتضنوها بكلِّ قوة من خلال العناية والرعاية والحب لتكون على ما هي عليه الآن. رحم الله الدكتور مازن الذي طالما حدَّثنا عن الأم التي كان يعتبرها مفخرة في هذه الدنيا!

أم مازن، ليس بمقدوري أن أعطيكِ حقَّك، فأنت أكبر وأجمل من كل الكلمات!

هيفاء البشير وقصص الأطفال

راشد عيسى [1]

هيفاء البشير سيدة أردنية وارفة الظلال، خصيبة العطاء في كل الاتجاهات، لها دور ريادي بليغ واسع في مجالات التنمية الصحية ورعاية كبار السّن وتفعيل حركة المرأة الأردنية في المجال الاجتماعي. فسيرتها الذاتية تكشف عن شخصية إيجابية فعّالة تصنع الحياة والأمل للآخرين بفاعلية جمالية بارزة. ولعلّ مذكراتها في كتابها «محطات في رحلتي مع الحياة» ترينا مرايا نشاطها الاجتماعي والإنساني بوضوح، كما أن كتاب الأديبة المعروفة سحر ملص «هيفاء البشير تجربة وحياة» يضيء بصورة عميقة منجزات السيدة هيفاء في أغلب مجالات الحياة في الأردن، لا سيّما مجال رعاية المسنين والمرضى، سواء بالرعاية المباشرة أو الرعاية الجمالية كإدارتها منتدى الرواد الكبار.

قصص الأطفال

إن الروح الإنسانية الثقافية لدى السيدة هيفاء جعلتها تتجه إلى كل نشاط إنساني جميل يحقق الغبطة للآخرين. ومن الملاحظ أنها اتجهت لتحقيق ذلك إلى مرحلتين من مراحل العمر، الأولى مرحلة التقدم في العمر، وهي مرحلة أولتها هيفاء عنايتها الكبيرة الشاملة المؤثرة عبر حراكها الاجتماعي التنموي في المجال الصحي والثقافي بشكل عام.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الطفولة، أي الاهتمام بثقافة الطفل تربيةً ورؤى جمالية تعدّ الأطفال لحياة جميلة غنية بالقيم والفضاءات التربوية الصحيحة. وكلٌّ من المرحلتين

(1) أكاديمي وشاعر.

يتسم بالضعف الذي يحتاج عونًا من الآخرين سواء ضعف الجسد أو ضعف الحركة العقلية أو انحسار النشاط الذهني المواكب لمستجدات الواقع.

ومن هنا اتجهت السيدة هيفاء إلى إعداد الأطفال ليكونوا كبارًا، وإلى إعداد الكبار ليكونوا أطفالًا، وهذا يعني أنها تسعى إلى إدامة بهجة الحياة للأشخاص في هاتين المرحلتين. أما المرحلة الوسطى وهي مرحلة الشباب والقوة الجسدية والعقلية فقد تركتها تصنع نفسها لأنها أقل حاجة للعون والمساعدة وتفعيل الأحلام السعيدة.

إنّ ما يهمنا في هذه الورقة هو إسهام البشير في مجال الطفولة وتحديدًا في مجال أدب الأطفال. ولا شك أن سردّ الكتابة للأطفال هو شغف الكاتب بعالم الطفولة، عالم الحرية واللامسؤولية والحلم والحرية واللعب الحرّ، والحنين لتلك المرحلة حنينًا لا ينقطع، فالإنسان إذا خسر زمنه الطفولي وإحساسه به خسر المباهج الحياتية، ذلك لأن زمن الرشد والوعي هو زمن المسؤولية المؤلمة. فالحنين إلى الطفولة يولّد طاقة سرية عظيمة من الجسور والأمل وديمومة الشباب. كما أن مردّ الكتابة للأطفال يتمثل في هدف الكاتب في تنمية ثقافة الطفل لإعداده للحياة أو لإتقانه فن الحياة، فهو بحاجة إلى الوقوف بجانبه بصورة مختلفة، وبخاصة في مجال الأدب الذي يُنشّط خياله ويبعث المسرات في وجدانه. فالجميع حريص على تجنيب الأطفال حياة البؤس والشقاء والمعاناة النفسية على اختلاف أنماطها في الواقع المعيش.

لذلك اتجهت هيفاء إلى فنٍّ من فنون أدب الأطفال، الفن المحبّب لهم، وهو الحكايات والقصص القصيرة الجذابة التي توسّع مدراكهم العقلية وتحسّن اتجاهاتهم الإيجابية سلوكًا وتفكيرًا، وتجعلهم سعداء مع أُسرهم وفي مدارسهم وجميع عوالم حركتهم الطفولية. ولا يفوتنا أن ننتبه إلى أنَّ البشير أم لأطفال ربّتهم وعاشت معهم وكبرت معهم، فقد لامست حاجتهم إلى التربية الجمالية في كل فروعها، فأرادت تعميم خبرتها وقدراتها على الأطفال في الأردن عن طريق تأليف القصص والحكايات الملائمة لهم في مرحلتين: المرحلة

الأولى من سن (8-10) سنوات، والثانية من سن (12 إلى 16) سنة تقريبًا. إذ من الصعب جدًا تحديد المرحلة بدقة كاملة؛ فبعض الأطفال في الثامنة يقدمون وعيًا يفوق أطفال الثانية عشرة، كما أنّ مسألة النضوج تختلف بشكل عام من بيئة إلى بيئة، ففي إفريقيا مثلًا ينضج جسد الطفل مبكرًا متجهًا للبلوغ وهو في سن العاشرة تقريبًا، وفي حين يتأخر سن النضج في البيئات الجغرافية الباردة كشمال أوروبا، ومن هنا حددت اليونيسيف سن الطفل منذ الولادة حتى الثامنة عشرة.

مرحلة من (8-10) سنوات

عُنيت هيفاء البشير بهذه المرحلة الطفولية عناية متواصلة ومكثفة عبر إصدارها مجموعتين قصصيتين بالعنوان نفسه هو: « الفرح والسعد»، كتبت الأولى عام 1997، وفازت بجائزة الملكة نور لأدب الأطفال، لكنها أصدرتها مطبوعة عام 2008. أما المجموعة الثانية من العنوان نفسه فأصدرتها عام 2004م، وتضمنت كلُّ مجموعة عشر قصص قصيرة على النحو الآتي:

المجموعة الأولى ضمت القصص الآتية:

1. فرح وبرج الحمام.
2. متحف الفنون.
3. أطفال الفضاء.
4. خمس شمعات.
5. يوم ماطر وقوس قزح.
6. مشكلة.
7. الحمد لله كثيرًا.
8. حكايات جدتي.

9. الحارس الوفي.
10. فرح وسعد ومهنة المستقبل.
11. أما المجموعة الثانية فاحتوت القصص الآتية:
12. زيارة طبيب الأسرة.
13. بساط الريح.
14. شقاوة.
15. لا بُدّ أن يأتي ذلك اليوم.
16. ما أجمل الضياء في يوم عطلة صيفية.
17. الطفل العربي يخطو على طريقة الديمقراطية.
18. الأطفال والألغام المزروعة.
19. متعة الصداقة بين الرجال.
20. إنه نادينا.
21. قصة مستوحاة من قصة ستيلالونا.

مضامين القصص العشرين

اتجهت مضامين القصص وأفكارها إلى تحقيق المتعة والمسرات للطفل من خلال مسار علمي يقدّم المعلومات، ومسار آخر أخلاقي يدعو إلى القيم الأخلاقية الجميلة من خلال موضوعات تخصّ عالم الطفل في مثل هذه السّن.

أولًا: الجانب العلمي المعرفي

ضمّ هذا الجانب مجموعة من المعارف والمعلومات الجغرافية والمكانية والفكرية كقصص «فرح وبرج الحمام»، إذ يتعرف الطفل على منطقة جغرافية جميلة في الأردن، وهي منطقة زي في محافظة البلقاء، فيتعرف الأطفال إلى الحَمَام ويحبونه ويتأملون طيرانه،

بينما اتجهت قصة «متحف الفنون» إلى تدريب الطفل على إقامة متحف خاص به في بيته يرجع إليه باستمرار، وهو متحف من الصور والأدوات الجميلة.

وتناولت قصة «أطفال الفضاء» أحلام الأطفال في أن يكونوا رواد فضاء يحلقون في السماء ويشاهدون عوالمها الساحرة العجيبة. في حين عرضت قصة «خمس شمعات» يوم عيد ميلاد سعد الذي بلغ عمره خمس سنوات، فيحتفل به أهله ويغنون له.

أما قصة «يوم ماطر وقوس قزح» ففيها يتعرّف الأطفال إلى جمال الألوان في قوس قزح، الذي يظهر في فضل الشتاء في يوم مشمس رغم البرد والمطر. وتناولت قصة «مشكلة» كيف يستطيع الأطفال ترتيب ألعابهم وأدواتهم بالتشاور مع أمهم وبالتعاون معًا.

بينما اتجهت قصة «الحمد لله كثيرًا» إلى تعزيز الجانب الديني من خلال يوم العيد والصلاة في بداية اليوم، وتبادل الزيارات والسفر بالطائرة إلى العقبة ومشاهدة جماليات البحر.

في حين احتوت قصة «حكايات جدتي» على ذكريات الجد من جهة الوالد والحديث عن الحياة القديمة ووسائل مواصلاتها، وإكرام الضيف، والعمل بالزراعة والسكن في بيت الشعر، أما قصة «الحارس الوفي» فعرضت فيها الكاتبة قيمة الوفاء من خلال الحارس الأمين الذي عالج الكلب المريض انطلاقًا من مبدأ الرفق بالحيوان إلى درجة أنَّ الكلب أصبح صديقًا للطفل سعد.

أما القصة الأخيرة «فرح وسعد ومهنة المستقبل» فتُقدِّم حوارًا جذابًا بين فرح وسعد حول اختيار المهنة في المستقبل، وضرورة أن يكون للإنسان عمل يسهم في بناء المجتمع.

مضامين مجموعة الفرح والسعد (المجموعة الثانية)

تعرض القصة الأولى «زيارة طبيب الأسرة» أهمية مراجعة الطبيب عند الإحساس بالمرض، وتقدّم صورة صحيحة لسلوك الطبيب والمريض وأسرة المريض. بينما تناولت

قصة «بساط الريح يعبر القرن الحادي والعشرين» مجموعة من الأطفال يحكي كلٌّ منهم عن رغبته للشابة التي جمعتهم في السماء؛ فكلُّ طفل يعرض أمنية تتناسب مع القرن الحادي والعشرين لتكون الحياة أجمل بلا ظلم ولا حروب، وبروح إنسانية أخلاقية. أما قصة «شقاوة» فتظهر نماذج من شغب الأطفال في غياب أمهم، ولكن بأسلوب تربوي شائق. في حين تعرض قصة «لا بُدّ أن يأتي ذلك اليوم» صورة واسعة عن مدينة القدس التي زارتها الجدّة، فتقدم الجدة معلومات منوّعة عن الوضع الاجتماعي والسياسي لمدينة القدس، ثم الحلم العربي في استعادتها من المحتل.

بينما تعرض قصة «ما أجمل الضياء في يوم عطلة صيفية» رحلةً للأطفال في مزرعة يتعرفون فيها على أنواع من الأشجار والأزهار والأطيار والحياة البرية الطبيعية الجميلة.

أما قصة «الطفل العربي يخطو على طريق الديمقراطية»، فتقدّم نموذجًا حديثًا لقضية حقوق الأطفال في جوٍّ ديمقراطي، وكيف يمكن للأطفال أن يصنعوا برلمانًا خاصًّا بهم.

بينما تتناول قصة «الأطفال والألغام المزروعة» قضية ترك الألغام في الأرض عبر السنين بعد الحروب، وكيف تنفجر هذه الألغام بالناس ولا سيّما الأطفال. أما قصة «متعة الصداقة بين الأجيال» فتكشف عن حاجة الطفل لمشاركة من هم أكبر سنًّا منه كالجد والجدة للذهاب معهم في رحلة مثلًا، وتبادل الأدوار والانسجام في التعامل الجميل المتبادل، كما لو أنَّ الطفل والجدة صديقان من العمر نفسه. بينما تتحدث قصة «إنه نادينا» عن اجتماع الأطفال في ركن من أركان بيت جميل في مكان يسموّنه ناديًا يتحدثون فيه ويلعبون بحرية على غرار نوادي الكبار. في حين تعرض قصة «ستيلانونا» كيف تعايش الوطواط المختلف في طيرانه وحياته مع العصافير التي لها حياتها الخاصة، فاحتضنت العصافير الوطواط الصغير وتربى بينهم إلى أن كبر وطار. وهذا يدل على قيمة التسامح والتعايش وتقبّل الآخر من أجل الإخاء الإنساني والمحبة الجامعة.

الجماليات الأسلوبية في القصص:

1. حرصت كاتبتنا على أن يكون المستوى اللغوي للقصص ملائمًا لتلك المرحلة العمرية عبر استخدام المفردات من بيئة الطفل وقاموسه المتوقع، لكنها حرصت أكثر على الخروج أحيانًا على ذلك المستوى إلى مستوى أعلى منه قليلًا، بخاصة في قصص الفرح والسعد (المجموعة الثانية)، وفي هذا التعدد أو الخروج فضيلتان فنيتان، أولاهما تعلّم الطفل لأساليب تعبيرية أوفر يتزوّد بها كثروة لغوية جديدة، والثانية أنَّ قُرّاء القصص ليسوا بالضرورة من الفئة نفسها، فثمة أطفال يقرؤون قصصًا أعلى من مرحلتهم العمرية بسبب وفرة الذكاء والتميز، وقد لمحتُ هذا المستوى لأعلى من سن العاشرة في القصص التي تتحدث عن أمور حياتية علمية أو سياسية أو فكرية كقصص: الطفل العربي، وعلى طريق الديمقراطية، ولا بُدَّ أن يأتي ذلك اليوم، وغيرها.
2. جعلت الكاتبة فرح وسعد بطلين رئيسين في أغلب القصص، فرح تمثل الطفلة الأنثى، وسعد يمثل الطفل الذكر، وفي ذلك مراعاة للجندرة من تنوّع واقعي لطبيعة الأطفال، فاكتسب الطفل القارئ فكرة عامة عن هاتين الشخصيتين النموذجيتين في السلوك التربوي القائم على توجيهات الأبوين. وبدت القصص حكايات مثالية فيها كمٌّ كبير من القيم التي ينبغي أن يتعلمها الطفل.
3. اعتمدت الكاتبة السرد التتابعي المتسلسل في الأحداث، بحيث يبقى القارئ الطفل مُنْشَدًّا إلى الحكاية في تتابعها.
4. أدخلت البشير في قصصها مناسبات وأحداثًا عربية وإنسانية وعالمية كنوع من الزاد الثقافي للأطفال، وذلك بأسلوب تشويقي بسيط.
5. اتّكأت على صيغة الماضي (انطلق، خرج، جلس، وقف، نظر)، وذلك في مستهل كل قصة. وكانت النهايات طبيعية متوقّعة تختم الأحداث بصورة ملائمة.

6. تراوح الخيال الفني في القصص من البسيط إلى متوسط البساطة، فقد لمستُ حرص الكاتبة على القيم ومعقولية الأحداث أكثر من حرصها على التخييل.
7. اتسمت جميع القصص بالروح الواقعية المناسبة لعمر الطفل، فدارت أحداث القصص بتراتبية متوازنة لا أثر فيها للمبالغة.
8. اشتملت كل قصة على حوار، وكان الحوار ظاهرة بنائية بارزة في جميع القصص. فقدمت بذلك آداب الحوار بشكل تلقائي يتعلمه الطفل دون إرشادات مباشرة.
9. أخلصت الكاتبة للبيئة الأردنية وتجلياتها، لا سيّما الطبيعة وجمالياتها ومواقعها.
10. كان زمن كل قصة ملائمًا لقدرة الطفل على الاستيعاب.
11. استخدمت البشير أساليب التعبير اليومي لدى الأطفال، فكان الفهم يسيرًا وقريبًا إلى ذهن الطفل.

مجموعة «ومضات أنا وسما»

في عام 2014م أصدرت هيفاء البشير مجموعتها القصصية المشبعة بروح الواقعية «ومضات أنا وسما»، فاتخذت حفيدتها سما شريكًا رئيسًا في الحوار وتبادل الأفكار والنقاش.

إن أهمية هذا الكتاب ترجع إلى أن الكاتبة كسرت حاجز القطيعة بين الأجيال، فالكاتبة جدّة في الثمانين والحفيدة فتاة يافعة دون الخامسة عشرة. والحفيدة تعيش عصر مواقع الاتصال الاجتماعي والهاتف الجوال وغوغل والآي باد وتويتر والفيس بوك والواتس أب وغير ذلك من تقنيات الثورة التكنولوجية.

جاءت النصوص في صورة حوارات ومراسلات ومناقشات بين الجدة والحفيدة، اتسمت بالحميمية وبقدرة الكاتبة على كسْب ودّ الحفيدة من غير إحساس بالفارق الكبير بين العمرين. وللحق تلك ميزة عظيمة في السيدة هيفاء البشير؛ فهي تتعامل مع جميع

الأعمار بروح شبابية متفهمة منفتحة على الاحترام المتبادل من أجل علاقات حياتية متناغمة.

ضمت الومضات الموضوعات الآتية:

1. وسائل الاتصال ووسائل النقل.
2. وخير جليس في الزمان كتاب.
3. نابلس والسلط.
4. قائد عالمي عظيم يغادر للقاء ربّه.
5. جميلة بوحيرد المرأة العربية المناضلة.
6. رحلتي إلى العقبة.
7. خالتي أميرة وشجرة الميس.
8. التمكين الديمقراطي.
9. الأحلام تتحقق بالصبر والإصرار.

في نصوص الومضات اتجاه واضح نحو ثقافة الفتيان واليفاعة عند الأطفال، ذلك أن جميع النصوص تتناول وقائع اجتماعية أو علمية أو وطنية أو فكرية بصورة تلائم في مستوى مقروئيتها مستوى الأطفال من (12) سنة إلى ست عشرة سنة.

وهو كتاب مدعوم بالصور الحقيقية سواء لأفراد الأسرة أو للشخوص أو للمدن كنابلس والسلط، أو للمعارض والمكتبات، وكانت الكاتبة أيضًا تذكر بعض أحوالها الشخصية وعلاقاتها المباشرة في الأحداث على غرار ما تحدثت به عن نابلس والسلط، فظهرت الكثير من الومضات على أنها سرد من جدة إلى حفيدتها، لكنه سرد غني بالمعلومات والمذكرات التي تفيد الحفيدة وتفيد غيرها من القراء الأطفال كقولها:

«تتشكل السلط من منطقتين، منطقة العواملة شمال المدينة في منطقة جبل السلالم، ومنقطة الأكراد في جنوبها، ويسكن المسيحيون في المنطقتين، ويشكل التعاون والمحبة

أنموذجًا بأفضل صور التعايش الإسلامي المسيحي السلمي محليًّا وعربيًّا»، أو قولها: «مدينة السلط جميلة، أهلها طيبون، صادقو المشاعر، خيّرون، وبينهم الرجال الرجال الذين يحبون بلدتهم ويتميزون باحترام الضيف، واحترام الذات والكرم والنخوة...».

إن مثل هذه العبارات هي توجيهات أو معلومات ذهنية جاهزة تدخل في نسيج النص، فتحيله إلى انفتاح على المقالة والسيرة الذاتية والبوح الخاص.

إن هذا الكتاب لا يندرج تحت فن السرد القصصي بقدر ما يندرج تحت باب النص المفتوح الموجّه إلى تثقيف الناشئة، وهذا التثقيف مختلف الاتجاهات والتجليات في كتابات السيدة هيفاء الحريصة على القيم التربوية والتعليمية في كل ما تكتب.

وعليه فإن هيفاء البشير تكتب وفق أهداف تربوية مخطط لها لتعزيز التربية الجمالية والأخلاقية والاجتماعية عند الأطفال، وتوفير قدر جيّد من المعارف والعلوم والمستجدات العصرية في حياتنا. ففي كتاباتها انتماء متجذر ومحبة خالصة للناس والأطفال والبيئة. لكنها أكثر حرصًا على تمجيد الطفولتين: طفولة الأطفال، وطفولة الكهول.

هيفاء البشير.. صناعة الحياة

بلال حسن التل [1]

منذ بدء الحياة على هذا الكوكب يتطابق البشر في لحظتين هما لحظة البداية ممثلة بالولادة، ولحظة النهاية ممثلة بالموت، لكنهم يختلفون بنِسَب وصور متفاوتة في مسيرة كلٍّ منهم من نقطة بدايته إلى نقطة نهايته، وتمضي الغالبية الساحقة منهم رحلتها بين النقطتين، كل فردٍ منهم منشغلٌ بذاته، مستسلمٌ لروتين الحياة، سائرٌ على خطى من سبقوه، يَعدُّ سنوات العمر التي تمضي في روتين البحث عن المال والعمل والطعام والشراب والانشغال بالذات.. وكلُّها قيودٌ تحررت منها قلة نادرة من البشر على مدار تاريخهم؛ إذ تسعى هذه القلَّةُ إلى مضاعفة سنوات عمرها، فتجعل من الثانية ثواني، ومن الدقيقة دقائق، ومن اليوم أيامًا، ومن الأسبوع أسابيع، ومن الشهر شهورًا، ومن العام أعوامًا، فيصير العمر أعمارًا ممتدةً قرونًا، عندما يُخلَّد ذِكْرُ أفراد هذه الفئة القليلة والنادرة بخلود تأثيرهم، وعندئذٍ يتلاشى معنى عدد سنوات أعمارهم؛ لأنَّ بعض أفراد هذه الفئة لم يعش بحساب العدد إلا عمرًا قصيرًا، لكنَّهم باقون فينا عبر القرون، لأنهم ضاعفوا سنوات أعمارهم بُحسن استثمار رأسمالهم الحقيقي الاستثمار المتميّز؛ فرأس المال الحقيقي للإنسان هو الوقت الممنوح له فوق هذه الأرض، لأنَّه رأس المال الذي لا تُعوَّض خسارته، مثلما تُعوَّض خسارة المال أو الجاه أو المنصب، وهذا هو سرُّ المعادلة الذي اكتشَفتْه سيدة هذا النهار، هيفاء البشير، التي اجتمعنا لنتعلم من تجربتها، وأوَّل ذلك أنَّ عمر الإنسان لا يُقاس بعدد سنيه، بل بقدرته على العطاء لغيره.

(1) كاتب وإعلامي أردني.

وفي هذا تقول السيدة هيفاء: «إننا لا نعيش لأنفسنا فقط حينما نعيش للآخرين، وبمقدار ما نضاعف إحساسنا بالآخرين يتضاعف أحاسنا بقيمة الحياة، فعندما نعيش لذواتنا فحسب، تبدو لنا الحياة قصيرةً مفرغة تبدأ من حيث بدأنا الوعي، وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود مهما طال الزمن. أما عندما نعيش لفكرة أو مبدأ، فإنَّ الحياة تبدو طويلة عميقة تبدأ من حيث بدأت الإنسانية، وتستمرُّ بعد مفارقتنا لهذه البسيطة»؛ وهذا قولٌ جسَّدتْه السيدة هيفاء مُمارسةً حقيقيةً عبر مسيرة حياتها عندما صار الإيثار عنوانًا بارزًا من عناوين حياتها.

وتقدِّم السيدة هيفاء البشير في ذلك طريقًا واضحًا للوصول إلى صناعة الحياة السعيدة الهادئة المطمئنة الرضيَّة التي تضاعف من عدد سنوات العمر، فتجعلها ممتدةً امتدادًا يُخلّد صاحبها بِذِكْرِهِ أطولَ بكثيرٍ من عدد السنين التي تدبُّ بها قدماه على وجه الأرض. وحتى نصل إلى هذا النوع من أنواع الحياة علينا تعلُّم الدرس الثاني من السيدة هيفاء البشير؛ فهي تعطينا وصفة إطالة العمر وغناه في قولها: «إنَّ انقضاء السنين لا يفقد القلب أن يظلَّ غضًّا طريًّا ومَخْزَنًا مليئًا بالمحبة وينبض بالإنسانية، ولا يضيرنا إن انحنى الظهر وثقلت الخطوات بتراكم السنين؛ فسنابل القمح تنحني لأنها مليئة بالخير، والسعادة تتجلى بالعطاء، والقناعة تتحقق برضى النفس».

لقد ذاقت السيدة هيفاء حلاوة العطاء فجعلته دستورها في الحياة، وهو دستورٌ أخلاقيٌّ شرحته السيدة أم مازن بقولها: «إنَّ النشاط التطوعي اختيارٌ حر لا يخضع لروابط وظيفية بمفهومها القانوني لتنظم العلاقة مع المتطوعين الذين يرتّب عليهم ضرورة احترام ضوابط العمل ومتطلباته، والالتزام بالمبادىء والقيم وميثاق النزاهة، وعدم قبول أيِّ مقابلٍ مادي لمجهوداتهم التطوعية؛ فهناك ميثاقٌ أخلاقيٌّ ذاتيٌّ ضابط للسلوك يمنع أيًّا من العاملين في العمل التطوعي من تحقيق أيِّ منفعة شخصية أو أجر».

وأوردتُ هذه الاستشهادات من أقوال السيدة هيفاء للاستعانة بها لإلقاء المزيد من الأضواء للتعّرف على هويتها، وهي هوية تشرحها صاحبتها عندما تقول: «آمنت دائمًا أنني على ثغرٍ من ثغور الأسرة والمجتمع، وهذا رتَّب عليّ التزامات وواجبًا للقيام بدوري تجاهها، من غير أيِّ حسابٍ للربح أو الخسارة؛ فأشرعتُ وجداني للجميع، وانتصرت لحاجاتهم، لأنَّ مساعدة الآخرين هي الأسمى قيميًّا، وإنَّ العمل عبادة، وقيمته معنويةٌ تتجاوز أيَّ مردودٍ مادي، وهو جسرٌ للسعادة والرضا، كما أنَّ دور المرأة أساسيٌّ ويجب أن يكون محوريًّا وليس هامشيًّا، وإن كانت رعاية الأسرة المسؤولية الأسمى لها، لكنَّ ذلك لا يمنعها من أن تسهم في رفعة مجتمعها، وإصلاحه ورقيِّه وتقدُّمه».

ومن ذلك يتجلَّى العالم الخفي في شخصية السيدة هيفاء البشير، للفلسفة والقناعات التي تحرِّكها لتبرز ميزة أخرى لها، وهي أنَّها عاشت أفكارها وقناعاتها، وحوَّلتها وقائع ملموسة على الأرض، وتجسدها مؤسسات يلمس الناس أثرها في حياتهم، فكان ثمرة ذلك كله عُقدًا ماسيًا من المؤسسات التي تخدم الإنسان في كل أطواره؛ إذ كانت أولى حبَّات هذا العُقد جمعية أصدقاء المستشفى، ثم جمعية الأَسِرَّة البيضاء، ودار الضيافة للمسنين، والاتحاد النسائيّ العام، وجمعيّة التأهيل النفسي الصفصاف، ومنتدى الرواد الكبار، وصولًا إلى الائتلاف الطبي لحماية المريض. وقد أنجزتْ ذلك كلَّه لأنها تؤمن بقدرتها على صناعة الحياة إيمانًا لا يوازيه إلا إيمانها بأنَّ العمل عبادةٌ تسلَّحت لأدائه على أكمل وجهٍ بسلاح الإصرار والإرادة. وبذلك تكون السيدة هيفاء قد تحررت من البلاء الذي أصاب غالبية العاملين بالعمل العام، وهذه من آفات مجتمعنا التي نجت منها السيدة هيفاء، أعني آفة الفصام النكد بين ما نقول وما نفعل، على خلاف السيدة هيفاء التي حولت أقوالها وأفكارها إلى أفعالٍ ومؤسسات، متحديةً بذلك الكثير من عقبات التخلُّف الحضاريِّ والإداري، وفقر الإمكانيات، مما يشير إلى مُكوّنٍ رئيس من مكونات شخصيتها؛ ذلك هو مُكوِّن الصلابة التي استمدتْها من صلابة جبل النار وجبال البلقاء، فصارت سيدةً عنيدةً

ثابتة، قادرة على الصمود والتحدي، فقد صمدت أمام تحدّي اليُتم عندما عاشت يتيمةً لتربي بعد ذلك أيتامًا عندما تحدَّت مصاعب فقدان الزوج، بعد أن تحدَّتْ مصاعب فقدان الأب ثم الأخ المعيل والراعي، مثلما تحدَّت مصاعب الاحتلالين البريطاني والصهيوني، وكلها تحدياتٌ أسهمت في نضوجها قبل الأوان، وفي قدرتها على الصمود والإنجاز المعتمد على العلم والعمل لتحقيق هدفها الأسمى الذي لخَّصتْه بقولها «تحرير الأرض والإنسان، وتهذيبه من الطغيان والتبعية، واستنهاض إرادة الإنسان الحرِّ المبدع، ليتعلم كيف يعبِّر عن وجهة نظره وسردها والإدلاء بها، من غير خجلٍ أو وَجَل، وتحرّرها من القيود لنعبر للتحرير والتنوير، وتحقيق آمال أبنائنا وطموحاتهم وحلمهم بالرفاه والتنمية».

هذه قراءة سريعة في سيرة السيدة هيفاء البشير ومسيرتها، وفيها يجد المرء أنموذجًا للإنسان المتوازن في كل شيء، وأول ذلك هو التوازن الدقيق بين الالتزام بالواجبات الأُسَريّة مع إيمانٍ مُطلَقٍ بالأُسرة الممتدة المتلاحمة؛ باعتبارها نواة المجتمع الأسياسية.. وبين العمل العام الذي يخدم المجتمع ويبنيه؛ فقد استطاعت السيدة هيفاء أن تحقِّق هذا التوازن لتقدّم بقدرتها على المثابرة وإصرارها على التفوق برهانًا عمليًّا على قدرة المرأة على الإنجاز والنجاح، والأهمُّ من ذلك المحافظة على النجاح، كما فعلت هيفاء البشير التي قدَّمت بمسيرة نجاحها برهانًا عمليًّا على عدم جواز تهميش المرأة؛ وبخاصة المؤمنة بذاتها ودورها، التي يمتلكها الإحساس بالكبرياء والثقة بالنفس، فها هي هيفاء البشير بنْتُ هذه الأرض الملتصقة بها، والمؤمنة بثقافتها وقيمتها وبإنسانها، بصرف النظر عن جنسه ولونه ومذهبه؛ فكم من امرأةٍ بألف رجل!

ليتَ النساءَ كَمثل هذي!

محمد السواعير [1]

أعرفُها ولا أعرفُها!! أعرفُها منذ أمدٍ بعيد، ومنذُ شببتُ عن الطّوق، واسمُها يتردّدُ عبر الزّمان والمكان، قولًا وفعلًا وهما واضحانِ للعَيان، عرفتُها بصمودِها وأنفتِها وكبريائها وعظمتِها، ولا أعرفُها، فلم ألتقِها إلا قبل عقدٍ ونيّف من تاريخها الزّاهي ومسيرتها الخيّرةِ الخالدة.

هي نابلسيّةُ المولد، قُدسيّة التّعلُّمِ والنّهوض، سلطيّةُ الانطلاق، فلسطينيّةُ العشق، أُردنيّةُ الهوى، عربيّةُ المجد والتاريخ، قضيّتُها الوطنُ الكبير، ومُهجتها الوطنُ الصّغير، وروحُها من المحيطِ إلى الخليج، لم تستسلِمْ لآلامِ الفقدِ وحُرقةِ الانكسار، وتقلّب الأزمات واختلال الموازين، فقد واصلتِ المسير، وأصرّت على المُتابعة، لم يكبُ جوادُها، ولم تضعُفْ همّتُها، ما دام القلبُ ينبضُ بالحياة والدّمُ يجري في العروق، فعطاؤُها بلا قيود، وعملُها بلا حدود، وجودُها من الموجود.

وهذهِ المرأةُ امرأةٌ جامعةٌ في امرأةٍ مانعة، وامرأةٌ مانعةٌ في امرأةٍ جامعة، وقلّما توجدُ هذه الصّفاتُ بين النّساء، فقد جمعتِ العملَ مُختلفًا، ومَنعتِ الدّخول في ما لا ينفعُ وفيما لا يلزم، فاستحقّتْ الجمعَ والمنعَ في آنٍ واحد، وكأنّها النّص (جامعٌ مانع)، محطّاتُها ليست عابرة، وثوابتُها ليست واهية، هدفُها مُبتدأ وأثرُها خبر، فمن التعليم إلى التمريض، ومن الأسرّة البيضاء إلى قوائم العمل والتّشغيل، ومع الكبار سنًّا واحتياجًا وظروفًا في مراكزهم، إلى الكبار قدرًا وعلمًا ومكانةً في مُنتدى الرّواد الكبار، ولكلّ مجتهدٍ نصيب.

(1) شاعر وناشط ثقافي.

وهيَ ليست امرأةً عادية؛ فقد جَمعتْ أجملَ صفات النّساء، وتحدّت بعملِها، وصنعت مجدًا، فليتَ النّساءَ كمثل هذي!

وإن تَكُــن النّســاءُ كمثــل هــذي ... لفُضّــلتِ النّســاءُ علــى الرّجــالِ
ومـا التّأنيـثُ لاسـم الشـمسِ عيـبٌ ... ولا التّـــذكيرُ فخـــرٌ للهـــلالِ

حكيمةُ القول، صادقةُ الفعل، عظيمةُ الانتماء، حبُّها للعمل عبادة، ومُتابعتُهُ تصوُّف، تَجمعُ ولا تُفرّق، تطرحُ السلبيات وتُعظّمُ الإيجابيات، لم ولن تتقاعسَ عن فعلِ الخير حيثُ كان، وهي عشقُ الأرضِ وعَبقُ التّاريخ، وما زالت تُكرّر القولَ بأنّ هذه الأرضَ التي تمتصُّ جلد الشّهداء، تَعِدُ الصّيف بقمحٍ وكواكب، هي في أحشائِها ملحٌ وماءٌ، وعلى أحضانِها جرحٌ يُحارب.

***

مـــاذا أقـــولُ وليلتـــي قمـــراءُ ... والحـــبُّ مـــا جـــادت بـــهِ حـــوّاءُ
فاضـــت حنانًـــا والوفـــاءُ بروحهـــا ... مـــذ أشـــرقت بعيونهـــا الأضـــواءُ
وإذا النسّـاء إلـى الوجـود تسـابقتْ ... فـــازت بـــأولِ مقعـــدٍ (هيفـــاءُ)
تتوافـــدُ الأســـماءُ في صـــفحاتها ... فتميّـــزتْ بحروفهـــا الأســـماءُ
هي دوحةُ الماضي وطيبُ حضورِهِ ... بظلالهـــا يتفيّـــأُ البُؤســـاءُ
سـارت إلـى العليـاءِ ثابتـة الخُطـى ... فاستبشَـــرَتْ بقُـــدومها العليـــاءُ
ربّـت كمـا ربَّـى الرّجـالُ وأجزلـتْ ... لـــم تثنِهـــا عـــن عزمهـــا ضـــرّاءُ
وتعهّـــدت أبناءهـــا بكرامـــةٍ ... وبعـــزّةٍ يســـمو بهـــا العُظمـــاءُ
وكـأنّ رَجـعَ الصّـوتِ في كلماتهـا ... نغـــمٌ تُـــردّدُ سِـــحرَهُ الأصـــداءُ
فأطِـلْ إلهـي عُمـرَ سـيّدةِ النّـدى ... مـا خـاب فيـك مـع الـدّعاء رجـاءُ

آفاق وطموحات

هيفاء البشير

بفرطٍ من الاهتمام، وبامتنانٍ بالغ، تسلمتُ الدعوة من مؤسسة عبد الحميد شومان التي نُجلّ ونحترم أحد أذرع مجموعة البنك العربي العالمية الرائدة التنويرية، حرّاس الثقافة والملتزمين بالمسؤولية الاجتماعية جنبًا إلى جنب مع دورها الذي يُشكّل أحدَ أهمّ الصروح الاقتصادية التي تجاوزت حدودَ المحليّة إلى العالمية.

لقد كنتم من السبّاقينَ لمفهومِ المسؤولية الاجتماعية في بلدنا منذ بواكير نشأتكم، وبما يشكّل صدى جهودكم وأنشطتكم، شاهدًا على ريادتكم، مُساندًا لمجهود الدولة، مُتمّمًا لدور وزارة الثقافة، حيث يطاول عنان السماء، ويُسهم في صياغة المواقف العامة وخلق الرأي الوطني العام.

إنّ استضافتي اليوم ضمن برنامج «ضيف العام» يزيدني شرفًا وتكريمًا، متمنيةً لكم دوامَ الازدهار، راجيةً أن يعينني الله لإكمال مسيرتي التطوّعية بما يرضي ويفيد.

أشعر بالغبطة أنَّ أبرز المؤسسات الوطنية الثقافية تستضيفني كخادمة لهذا الوطن، لتبقى شعلةَ العطاء وقّادة بين الناس.

لقد آمنتُ أنّه ليس في العملِ التطوّعي مستحيل، إذا توفّرت النية والإرادة والنفس الطويل والتخطيط السليم، أمّا المال فيأتي، فأبواب الخير لن تُغلق يومًا في هذه الحياة.

إنّ ذوي المبادئ لا بدّ أن يصلوا لأهدافهم، مهما كان هناك من صعوبات، ومهما استطالت الطريق، آمنتُ بأنّ العملَ عبادةٌ، وكنت أبدًا شديدة الحرص على نظافة وسلامة المسيرة.

ولدت في التاسع والعشرين من نيسان عام 1931 في مدينة نابلس، وكنت الصغرى بين ستة أبناء، يكبرني ثلاثة أشقاء وشقيقتان.

غادرت الطفولةَ مُبكرًا، عندما استيقظت صبيحة أحد أيام عام 1935 على صوت بكاءٍ أدهشني، لأعلم أن والدي قد فارق الحياة. ولم أفهم كابنة الرابعة معنى ذلك، فاصطحبتني والدتي لألقي النظرةَ الأخيرة، وأودّع والدي المُسجى على السرير دون حراك، وأخبرتني أنه ذاهبٌ للقاء ربّه، وساعدني على تجاوزِ ألم الفقدان حرص أمي وشقيقي الأكبر «حفظي» على تعويض غياب الأب، الذي لم يتبقّ في ذهني سوى طيفه وبريق عينيه وبسمته الحانية.

تحالفت الظروف الشخصية والعامة معًا لصقل وعيي كطفلة، شهدتُ إضراب عام 1936، واندلاع الحرب العالمية الثانية، وشاهدت نتاج تواطؤ الكون على وطني وشعبي وتقاطر الغزاة الأجانب. وأنضجَت الظروف الخاصة والعامة وعي أفرادها بجوهر الحياة، ووسم شخصيات أفرادها بالجديّة والمسؤولية؛ لجعل وجودهم فيها مُجديًا.

تلقيت تعليمي الابتدائي والإعدادي في مدارس المدينة، ولتميّزي وتفوّقي حصلت عام 1946 على منحةٍ دراسية لدار المُعلّمات في القدس، غير أنّ التطورات السياسية والأمنية التي شهدتها فلسطين، والقرار البريطاني بإنهاء الانتداب على فلسطين، بعد استكمال جاهزية الحركة الصهيونية لإنشاء دولة إسرائيل فوق الجزء الأكبر منها، وقيامه بإغلاق دار المعلمات في القدس قبل اجتياز الطالبات لامتحان المترك، أعادتني وزميلاتي إلى نابلس، وكل فتاة إلى مدينتها قبل أن نحقّق حلمنا بالتخرّج، فتبرّعت إحدى المعلمات في المدينة بمتابعة التعليم مع عددٍ من الطالبات، ما أهّلنا لتقديم امتحان المترك، فحصلت على شهادة الاجتياز للتعليم العالي الفلسطيني بامتياز عام 1948. ثمّ عُيّنت رسميًا مُعلّمة في المدرسة العائشية مطلع عام 1950.

خلال عملي بالتدريس، وجدت في مسرح المدرسة نافذةً تنويرية، فنشطتُ في تحويل النصوص الأدبية إلى نصوصٍ مسرحية تشترك في عرضها المعلّمات والطالبات.

واستقطبت السياسة أيضًا اهتمامي، وأنا أرى تداعيات النكبة على حياة الشعب الفلسطيني، وشجّعني شقيقي «حفظي» على الانتماء لحزب البعث العربي الاشتراكي، فكنت من أوائل النساء اللواتي ينضممن إلى عضوية الحزب.

وكما كان للقدر دورٌ حاسمٌ في تشكيلِ حياة الشعب الفلسطيني، فقد لعب أيضًا دورًا حاسمًا في تشكيل حياتي الشخصية، فإلحاق الضفة الغربية بالضفة الشرقية عام 1950 لتشكّلا معًا المملكة الأردنية الهاشمية، وحّد الضفتين جغرافيًّا وسياسيًّا، وحطّم الفواصل التي أسّس لها اتفاق سايكس-بيكو، وكرّسها الانتداب البريطاني بقراره عام 1923 بفصل شرق الأردن عن فلسطين، وأعاد نسج الروابط الأسرية بين الشعبين على ضفّتي النهر.

شاء القدر أن يتصادف وجود صديق مشترك لحفظي ملحيس وللطبيب الشاب محمد البشير من مدينة السلط، يجمع ثلاثتهم حزبُ البعث العربي الاشتراكي، وكان الطبيب الشاب يبحث عن شريكةٍ لحياته ناضجة ومتعلمة وواعية. فأشار عليه الصديق بـ(هيفاء شقيقة حفظي) فتعرّف علي، ولفته النضج والوعي وقوة الشخصية والاستقلال، وأعجبه تشارك الانتماء إلى حزب البعث، ما يؤسّس للتقارب الفكري بيننا.

تقدّم لخطبتي، ووجدت فيه الرجلَ المناسب، وتزوّجنا عام 1954، وانتقلت للعيشِ معه في مدينة السلط، التي استقبل أهلُها بالودّ والحفاوة والرغبة في التعرّف على مزايا العروس القادمة من خلف النهر، وما بين التأقلم في بيئةٍ جديدةٍ وحنيني إلى نابلس وضيقي من عدم إمكانية استئناف العمل في التعليم -إذ كان القانون آنذاك يحظر عمل النساء المتزوجات- أنجبت ابني البكر مازن عام 1955، وشاء القدر أن حقّق رغبتي بالعودة للتدريس، إذ تصادف شغور موقع معلمة اللغة الإنجليزية في المدرسة الثانوية بالسلط، وتطوّعت للعمل ريثما يجدون بديلة. وعندما لم يتمكّنوا، صدر قرار استثنائي عام 1956 بتعييني رسميًّا لتدريس اللغة الإنجليزية لطالبات المرحلة الثانوية في السلط، وكنت أوّل

امرأة متزوجة تنال هذا الحق، وخلال خمسة أعوام أصبحتُ أمًّا لأربعة أطفال ذكور، وقد مكّنني دعم زوجي من مواصلة التدريس.

لم تجرِ الأمور لصالحي، إذ كان وزير التربية والتعليم ضدّ عمل المرأة المتزوجة، فأصدر عام 1962 قرارًا تعسفيًّا بنقلي لمدينة الكرك، مما دفعني لتقديم الاستقالة.

في العام 1966، عيّن زوجي مديرًا إداريًّا لوزارة الصحة، فالتحقت الأسرة به في عمّان، وفي نفس العام، أنجبت توأمًا من الذكور، وأصبحت أُمًا لستة أبناء.

تمّ ابتعاث زوجي للقاهرة للتخصّص في الطبّ الشرعي والسموم بجامعة عين شمس، واستمررت بتحمّل مسؤولياتي في رعاية الأسرة لوحدي طيلة فترة غيابه في مصر.

في العام 1970، عيّن الدكتور محمد البشير وزيرًا للدولة ثم وزيرًا للصحة، وكان خلال عمله بالوزارة قد لاحظ نقصًا كبيرًا في قطاع التمريض الأردني، والاعتماد المُفرط على الممرضات الاجنبيات خصوصًا من الهند وبنغلادش، فقد جعلت العادات والتقاليد وثقافة العيب الأردنيين يمنعون بناتهم من ممارسة مهنة التمريض.

سعى الدكتور محمد من خلال موقعه وزيرًا للصحة إلى تغيير المفاهيم السلبية السائدة، التي تحولُ دونَ عمل الأردنيات في التمريض، ففوائد ذلك لا تقتصر على النواحي المعنوية للمرضى المرتبطة باللغة والعادات، بل تمتدّ للجانب الاقتصادي لجهة توفير تحويلات العاملات الأجنبيات من العُملة الصعبة لبلادهن، ورفع النسبة المتدنية لمشاركة النساء الأردنيات في اليدِ العاملة من جهةٍ أخرى.

هنا أدركت أن عليّ كرياديةٍ وكزوجةٍ لوزير الصحة، مسؤولية المبادرة في صنع التغيير، فابتدأت الاتصال بزوجات الأطباء، والتشاور معهنّ في تأسيس جمعية خيرية لدعم قطاعِ التمريض، وتوافقن على إنشاء «جمعية الأسرّة البيضاء» التي تمّ تسجيلها عام 1970، وتوجّهنا إلى مدارس البنات لتوعيتهنّ بأهمية مهنة التمريض، وبالرسالة الانسانية التي تنطوي عليها لمساعدة المرضى، وبالدور الاقتصادي المهم لإحلال العمالة الأردنية محلّ

العمالة الأجنبية. وقد نجحت حملة التوعية ونظام الحوافز في تشجيع الفتيات الأردنيات على الالتحاق بدراسة التمريض وامتهانه، والاستغناء تدريجيًا عن الممرضات الأجنبيات.

وامتدت خدمات أعضاء الجمعية التطوّعية لدعم السلك التمريضي بالمستشفيات، وقد لاحظَ رئيس الوزراء، دولة وصفي التل، نتائج جهودنا؛ فدعانا إلى الاهتمام أيضًا برعاية المُسنّين الذين لاتتوفّر لهم رعايةٌ أسرية.

وفي العام 1975، تمّ وضع حجر الأساس لإنشاء دار ضيافة للمُسنين، وبدأت الدار باستقبال النزلاء عام 1979.

غافلني القدر على حين غرّة باختطاف رفيق العمر، عندما فاجأتني نشرة الأخبار في التاسع من شباط عام 1977 بنبأ سقوط الطائرة العمودية التي كانت تُقلّ الملكة علياء ووزير الصحة في طريق عودتهم من زيارةٍ لمستشفى الطفيلة، فأحسست باهتزاز الأرض تحتَ قدمي، وبالكاد تمكّنت من لملمةِ أشلاء روحي، وطيّ الحزن الذي سكن قلبي وعقلي برحيل توأم الروح وشريك العمر والسند والأب، تاركًا بعهدتي مسؤولية رعاية ستة أبناء أكبرهم في السنة الجامعية الثانية في كلية الطب، وأصغرهم توأم بعمر عشر سنوات.

دفعتني الخسارة المُبكرة لزوجي الى استجماع طاقتي لتحقيق حلمنا معًا، فنذرت العمر لتربية الأبناء، كما تمنّى والدهم، وإعدادهم لتحمّل مسؤوليات المواطنة الصالحة، وتفرّغت للعمل التطوّعي والخدمة العامة، رغم الضغوطات النفسية والمادية، وقرّرت بالإضافة لذلك استئناف دراستي الجامعية عام 1979، والالتحاق بكلية التمريض بعد انقطاع عن الدراسة لأكثر من ثلاثة عقود، لإكمال رسالة زوجي التنويرية بأهمية رسالة التمريض، وحصلت عام 1983 على شهادة البكالوريوس في حقل التمريض مع مرتبة الشرف من الجامعة الأردنية. وواصلت السعيَ لتنمية معارفي العلمية، فالتحقت بدورة الإدارة الاستراتيجية للمنظمات غير الحكومية في مدينة فيرمونت عام 1988 في أمريكا.

أرّقني كثيرًا إهمال المرضى النفسيين، فعملت مع زملاء وأعضاء جمعية الأسرّة البيضاء على إنشاء الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي، وتولّيت رئاستها عام 1994. وأنشأت عام 2003 دارًا لرعايتهم، وسبعة مشاغل لتأهيلهم مهنيًّا؛ لإعادة دمجهم في المجتمع، واهتممت أيضًا مع زميلاتي بالصحة النفسية لكبار السن، فأنشأت عام 2009 منتدى الروّاد الكبار؛ للاهتمام بالشؤون الثقافية والترفيهية للمتقاعدين من الجنسين، وبات المنتدى من أحدث وأهمّ صروح الثقافة في الأردن.

وتقديرًا لجهودي المتميزة تمّ اختياري لمواقع رسمية، إذ تمّ تعييني عضوًا في مجلس أمانة العاصمة عام 1980 كأوّل امرأة تتبوّأ هذا الموقع، وجُدّدت عضويتي في مجلس أمانة عمّان الكبرى لدوراتٍ متتالية حتى العام 1994، كما عيّنت عضوًا في المجلس الوطني الاستشاري عام 1982 الذي تمّ إنشاؤه لتعويض غياب مجلس النواب، وبقيت حتى عام 1984 عند عودة الحياة البرلمانية، وتمّ اختياري أيضًا عام 1998 لعضوية مجلس أمناء جامعة آل البيت.

على صعيد العمل النسوي، ساهمت في تأسيس الاتحاد النسائي الأردني العام، وفزتُ بانتخابات رئاسته في أوّل دورةٍ عام 1983، وأعيد انتخابي عدّة مرات لرئاسته حتى عام 1990. ومثّلت الاتحادَ في المحافل العربية والإقليمية والدولية، وقد ترأّست الوفدين الرسمي والشعبي لمؤتمر نهاية عقد المرأة في نيروبي عام 1985، وشاركت في مؤتمرات الأمم المتحدة الدولية للمرأة في برلين وكوبنهاجن ونيروبي وبكين في عام 1975، 1980، 1985، 1995 على التوالي، وشاركت في عضوية المكتب التنفيذي لاتحاد الجمعيات الخيرية لمحافظة البلقاء خلال الفترة 1994-1996، وأيضًا في عضوية لجنة التنسيق للمنظمات غير الحكومية المنبثقة عن اللجنة الوطنية لشؤون المرأة.

وإلى جانب نشاطاتي المتنوّعة، اهتممت بأدب الأطفال، فألّفت مجموعتين لقصص الأطفال بعنوان: «الفرح والسعد» وتمّ منحي على المجموعة الأولى جائزة الملكة نور

للقصة القصيرة لأدب الأطفال عام 1997، وحصلت على عضوية الهيئة الإدارية لاتحاد الكتّاب والأدباء الأردنيين للفترة 1995-1997، والمجموعة الثانية أصدرتها عام 2004، وألحقتها بمجموعةٍ قصصية لليافعين بعنوان «أنا وسما» عام 2015، ولخّصت مسيرة حياتي الحافلة بالعطاء في كتاب بعنوان «محطات في رحلتي مع الحياة» صدر عام 2010. وعرفانًا بدوري المميز، والممتد على مدى أكثر من سبعة عقود متواصلة في خدمة المجتمع والوطن العربي، حصلت على عديدٍ من الجوائز والأوسمة، فتمّ منحي وسام الاستقلال من جلالة الملك الحسين عام 1975، ومُنحت جائزة أديلييدر ستوري عام 1977 من المركز الثقافي في روما؛ تقديرًا لدوري في العمل الاجتماعي، وجائزة الملكة نور لرائدات العمل النسائي عام 1995، وجائزة الأسرة المثالية في العالم العربي عام 2006 من سموّ الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حاكم دبي، ووسام العطاء المميز من جلالة الملك عبد الله الثاني في ذكرى عيد الاستقلال عام 2007، وشهادة ودرع للمشاركة في الخدمات الصحية التطوّعية من منظمة الصحة العالمية؛ بمناسبة مرور 25 عامًا على افتتاح مكتب الأردن عام 2010، وجائزة العمل التطوّعي لرعاية كبار السن عام 2015 من سمو الشيخ سلطان القاسمي حاكم الشارقة.

وانضممت إلى ائتلاف مؤسسات المجتمع المدني الصحي عام 2011، للدفاع عن حقوق المريض، وترأسته، ثم انضممت إلى المجلس الصحي العالي عام 2017 لأكون مندوبةً عن الائتلاف الصحي، وتمّ إطلاق الميثاق الوطني لرعاية المريض.

أيها الحضور الكريم، تفصيلات الحياة مؤلمة وموجعة، لكن لا بدّ من القول إن الحياة بنتائجها وليس بتفصيلاتها، لقد أنعم اللهُ عليَّ بأن سخّر لي من الأهلِ أمًا قادرةً رسّخت لديّ من القيم ما ساعدني في إدارة حياتي، وتنشئة أبنائي، والسير في الطريق إلى سواء السبيل، والرضا بما قسمَ الله، كما سخّر لي زوجًا أتاحَ لي بيئةً مساعدة للإنجاز وبعدًا ذاتيًّا في تربية الأبناء والوصول بهم إلى العلم والسلوك الخيّر.

أكرمني اللهُ بستّة أبناء: مازن يحمل شهادة اختصاص في طبّ الأسرة من بريطانيا، وعوني يحمل شهادة اختصاص في الجراحة العامة، وعبد الرحمن يحمل شهادتي اختصاص في النسائية والتوليد والإخصاب وطب الأجنّة من بريطانيا، وبلال يحمل شهادة دكتوراه في هندسة البيئة من كندا، وصلاح الدين حاصل على شهادة دكتوراه في القانون الدولي من كندا، وعامر حاصل على بكالوريوس هندسة معمارية من الجامعة الأردنية.

ولي من الأحفاد «20» حفيدًا، اثنا عشر منهم أنهوا دراساتهم العليا، وخمسة منهم حصلوا على درجة البكالوريوس، وثلاثة منهم ما يزالون على مقاعد الدراسة.

لكن، اختبرني الله جلّت قدرته من جديد، بأن اختارَ ابني الأعزّ «مازن» إلى جواره، وكانت الضربة التي لا قِبَلَ لي بها، فلا حولَ ولا قوّة إلّا بالله.

بعدَ كلّ خسارة تلحق بي، أشعر وكأني فقدت قوّتي وأطرافي، حتى تغلق الحياة بوجهي، وأشعر أنني انتهيت ولا أستطيع إكمال دوري.

لكنَّ عيون الأبناء ووجوههم التي تحدّق بي حين أسقط في بئر أحزاني، تسحبني رويدًا رويدًا من أجل استكمال مسيرتي، فهم سرّ وجودي.

سرتُ على نهج زوجي، تشبّثت بالأرض وبخاصة مزرعة زي إذ كانت عشقه، وأمدّني الله بالقوة، وكلما ضعفتُ عاد نور الله يشعّ في أعماقي فأنهض من جديد، فحقّقت في زي خمس مراحل إعمار، وبدأت أخيرًا المرحلة السادسة النهائية، وها هي اليوم تبدو قطعةً من أراضي الجنة.

أجلس تحت عرش الله حامدةً شاكرة، لكنَّ فقد مازن من جديد، محنةٌ فاقت كلّ ما مضى، وليس لديّ ما أقوله اليوم إلاّ «إنا لله وإنا إليه راجعون»، نحمده على السرّاء والضراء.. وصبرٌ جميل والله المستعان.. أعود إلى كتابِهِ الكريم، لأجد أنّ محبّة الله تصهر الروح، وتعلّمنا الصبر، لنعود إلى كتاب الله وسنّة نبيه ونهجه، مستسلمين للموت، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

يحيطني هذا المجتمع بمشاركته ومشاعره الطيّبة، أشكر هذا الوطن الطيّب الذي جعلَ الأبوابَ مشرعةً لتتقبّل جهدي ومسيرتي، أرفع وجهي إلى السماء وأدعو اللهَ أن يديم أمنه وعزّته وقيادته.

أما مشروع «رواقنا»، فهو الأخير للمنتدى، خزانة ذاكرتنا الجميلة، وهو مشروع متحفٍ جمالي فني توثيقي، عبارة عن خزانة حافظة لأهم مكوّنات الهوية الشعبية الأردنية من الملابس التي تمكّنا من جمعها من المحافظات الأردنية جميعها.. مشروع رواقنا مُنتج إعلامي وترويجي للسياحة، ووسيلة معرفية للزوّار من طلاب المدارس وكليات المجتمع والجامعات وقطاعات المجتمع المتعددة.. يضمّ الملابس ومتعلّقاتها من الإكسسوارات والحليّ، تقدّم بواسطة تقنيات متطوّرة، وقد قام على تشكيل (رواقنا) نخبةٌ من المُصمّمين ومنظمي المتاحف من المهندسين المتمرّسين الخبراء بهذا المجال، فنحن ندعو الزائر للتوقّف مع الحكاية المشوقة القائلة: وطنك لا يكفي أن تحبّه وحدك، بل اجعل غيرك يحبّه، لذا سينتج المتحف مواد متنوعةً صالحة للبث وإنتاج حلقات إذاعية، ترافقها استعراضات موسيقية وغنائية تشتمل على العادات من أفراح ومناسبات وطنية تبعث البهجة في النفوس.

خلاصة القول:

أقدّس العمل، وأقدّس العلم، وهو ليس مقصورًا على حقبة عمرية معيّنة، وأكبر فخر للإنسان ليس بعدم السقوط بل النهوض مجددًا إذا تعثّر.. تجرّأتُ أن أكون قائدةً، وأدعو المرأة دومًا أن تكون مُنتجةً، وأن يكون دورها فاعلًا من أجل حقوقها ومصالحها.

أيتها المرأة، لا تقولي دوري انتهى بتكوين أسرة، ما زال هناك متّسع في الحياة، وفي العمل، فعليك أن تقهري الخوفَ والتردّد. آمني بنفسك ودورك، وليكن قلبك كبيرًا لتعطي الآخرين، تجرّأي على الريادة حتى تصلي إلى النجاح، أما أنا فأتوكّأ اليومَ على عصاي،

أواصل العطاء لخدمة المجتمع بذات الهمّة والإصرار والعزيمة، لعلّ ذلك يطفئ جراح الروح، ويخفّف الأسى اللامحدود.

إنجازات هيفاء البشير
جمعيّة الأسِرّة البيضاء

الفكرة والتأسيس

ما تزال «جمعيّة الأسرّة البيضاء» تواصل دورها، بما يحمله الاسم من نقاءٍ إنسانيّ وفلسفة نبيلة قامت بها الجمعيّة التي تأسست في بداية سبعينيات القرن الماضي (1971)، وحملت على عاتقها مساعدة المرضى الذين تطول إقامتهم في مستشفيات وزارة الصحّة ودعم التمريض، وكذلك خدمة كبار السّن.

وعلى الرغم من تزايد أعبائها الماديّة؛ إلا أنّ دورها لم يتوقّف، بهمّة رئيستها الأديبة الكاتبة هيفاء البشير، وبحثها المستمر عما يلبي هذه الحاجة الأصيلة لدى نفوسٍ قُدّر لها أن تحتاج العون.

وتنطلق الجمعيّة العريقة في مشوارها من قيمة العمل الاجتماعيّ التطوّعي، وتَحَمُّل صعوباته ومتغيراته المالية تحديدًا، نحو التنمية بمفهومها الاجتماعي الذي هو جزءٌ لا ينفصل من تنمية شاملة، وسيلتها وغايتها الإنسان، في الوقت ذاته.

وهو جهدٌ طويل، ويحتاج نَفَسًا تكامليًّا ومتابعة مع القطاعين العام والخاص والمؤمنين بقيمة العمل التطوعي الذي يستهدف ما هو دائم وليس تلبية احتياجات آنيّة فقط؛ ذلك أنّ العمل التطوّعي المستمر له شروطه وأهدافه طويلة المدى، كما أنّه يؤمن بصعوبات المواصلة وإقناع الآخرين بجدوى هذه الفئات ذات الوضع الخاص في المجتمع.

وتسير الجمعيّة على أسس مرونة الواجب الإنساني وتلافي البيروقراطيّة في تنفيذ الإجراءات وقراءة الاحتياجات وتحقيق الرسالة، بعيدًا عن الاستعراض والمنافع

الشخصيّة؛ إذ ينسجم الفرد مع هذا الطَّيف الإنسانيّ، ويجد نفسه في شفاء المحرومين والعناية بهم ودمجهم في المجتمعات وتحفيز إنسانيّتهم تجاه محيطهم الاجتماعي.

ويتفرّع عن الجمعية كلٌّ من «دار الضيافة للمسنين»، و«منتدى الرواد الكبار»، وهما ذراعان قويّتان لجمعيّة ناجحة مؤسسيًّا، تجاوزت العناية التقليدية إلى المعنويّة والانسجام النفسي لنزلائها، في تفاعل مشهود لهم مع محيطهم المجتمعي.

وقد قدّمت الأديبة والناشطة الاجتماعيّة هيفاء البشير الكثير للجمعيّة، خاصةً أنّها درست في السبعينيات التمريض في الجامعة الأردنيّة إيمانًا بهذا الهدف الإنسانيّ النبيل، وحققت شيئًا متميّزًا على أرض الواقع يجمع بين التخصص والتطوّع، فكانت «جمعيّة الأسرّة البيضاء».

وتأسست الجمعيّة تحت رقم (47)، بترخيص من وزارة التنمية الاجتماعية، وفي مقدمة أهدافها مساعدة المرضى الذين تطول إقامتهم في مستشفيات وزارة الصحة ودعم التمريض وكذلك خدمة كبار المسنين.

دار الضيافة للمسنّين

استحوذت رعاية المسنين على القسم الأكبر والأهم من خدمات جمعيّة الأسرّة البيضاء، وذلك منذ عام 1975، يوم وُضع حجر الأساس لدار الضيافة للمسنين على أرض الجويدة (عمان)، برعاية من جلالة المغفور له الملك الحسين طيب الله ثراه، الذي افتتحها رسميًّا عام 1979، فقد تم إنشاء وتشغيل الدار بأنشطة مستمرة للجمعية وتبرعات محلية وعربية، فخرجت على أحسن صورة مدروسة وقادرة على الأداء.

وتستقبل دار الضيافة للمسنين كبار السن من النساء والرجال المتوحدين أو الذين انحدرت قدراتهم الجسمية، ولم يعد في مقدورهم خدمة أنفسهم.

وتهدف دار الضيافة إلى: تقديم الخدمات الاجتماعية والإنسانية للمريض والمسن، وتقديم خدمة للعاملين في أجهزة المستشفيات الذين يخدمون المريض، والإسهام في سدّ حاجات المستشفيات الحكومية وتلبية الممكن منها، مما هو ليس من مسؤوليات وزارة الصحة، وإقامة مشاريع خيرية وخدمات بحسب المتطلبات، ودعم التمريض والدعاية بين الفتيات الأردنيات للالتحاق بهذه المهنة.

منجزات وخدمات

من منجزات الجمعيّة إنشاء كفتيريا في مستشفى البشير لخدمة الأطباء والممرضات والزوار. وتقوم على خدمة الكفتيريا متطوّعات من الجمعية بالإضافة للموظف المعين لذلك، وتقدّم منتوجاتها بأسعار مناسبة؛ إذ ليس الهدف الأول منها ماديًّا، كما أنشأت الجمعيّة دكان مبيعات في مستشفى الجامعة الأردنية، تؤمّن الاحتياجات الضرورية من المشتريات التي يحتاجها الجهاز العامل والمريض والزائر، لتكون في متناول اليد وبأسعار مقبولة. وكذلك أنشأت الجمعيّة مبنى استثماريًّا على الأرض المجاورة لدار الضيافة للمسنين؛ فيُستفاد من الأجرة السنوية لرفد الخدمات التطوعية التي تقوم بها الجمعية، وكذلك أقامت الجمعيّة دار الضيافة للمسنين في منطقة الجويدة بعمان.

ويخدم الدار جهازٌ يبلغ اثنين وخمسين موظفًا، لحاجة هذه الفئة لخدمة مكثّفة من إدارة وخدمات صحية ورعاية وإشراف، بالإضافة إلى عمال الصيانة والنظافة وعمال المطبخ والغسيل.

وتُعتبر دار الضيافة للمسنين مركزًا تعليميًّا لتدريب طلبة كليات الطب والتمريض بحسب ساعات معتمدة، وتَرِدُ دائمًا كتب شكر من هذه المؤسسات، وذلك للمستوى الذي تؤمّنه الدار في توجيه فريق المتدربين ومساعدتهم.

وتتقاضى الجمعية من المقتدر رسوم إقامة متواضعة، وتتعامل مع المستفيدين بحسب قدراتهم المالية؛ نظرًا لكونها جمعيّةً إنسانية غير ربحية أولًا وأخيرًا، وتغطّي جزءًا أكبر من الكلفة من أنشطةٍ مدرَّة للدخل.

كما تستقبل عددًا من المسنّين غير المقتدرين (يُحوّلون بعد دراسة من وزارة التنمية الاجتماعية)؛ فتغطّي الوزارة رسومهم، ولكن بسبب تصاعد الكلفة، فإن هذه الرسوم لا تكفي لتغطية كلفة النزلاء المحوّلين.

وتتوجه الجمعية للهيئات والجمعيات والمدارس بالشكر لتوافدهم وباستمرار للترفيه عن المسنين وتقديم الهدايا لهم، خاصةً أنَّ جمعية الأسِّرة البيضاء تؤمن بأهمية التفاعل بين الأجيال، فزيارة الأطفال تُدخل المسرة والبهجة إلى قلوب المسنين.

وتشكّل الهيئة العامة للجمعية، التي يبلغ عددها خمسًا وأربعين سيدةً، هيئةً عاملة يتناوب فيها الأعضاء أسبوعيًّا على أكثر من نشاط أو خدمة، وبشكل ملتزم، مثل كفتيريا مستشفى البشير، أو دكان الهدايا في مستشفى الجامعة الأردنية، أو اللجان المشكّلة لخدمة دار المسنين، مثل اللجنة الاجتماعية ولجنة التعامل مع حاجات النزلاء، ولجنة المطبخ والغسيل والمشتريات والصيانة. وتقوم هذه اللجان بالإشراف وإبداء الملاحظات وحلّ المشاكل بشكل سريع.

كما أنّ الجهاز العامل في الدار، وبوظائفه المختلفة، يقدّم خدمة رائعة؛ ذلك أنّ في خدمتهم مضمون التطوع بالجهد والوقت، إذ يؤدّون هذا الهدف عن طيب خاطر، مؤمنين بقيمة ساعات العمل والجهد المبذول.

التحديات والاستيعاب

من التحدّيات التي تواجه الجمعيّة أنّها تغطّي العجز الناتج عن كلفة إدارة الدار من مصادر أربعة، هي: دخل الكافتيريا، ودخل دكان مستشفى الجامعة الأردنية، وأنشطة

الجمعية الاجتماعية المدرّة للدخل، والتبرّعات. كما أنّ أكثر المصاريف المُكلفة هي فواتير الماء والكهرباء والديزل ورواتب الكادر الوظيفي وخدمة النظافة والصيانة.

وتستقبل الدار عددًا من كبار السن أكبر من طاقتها الاستيعابية؛ ويلاحظ أن عدد الرجال يشكّل ضعف عدد النساء، وتؤمن الجمعية بأنها مسؤولة عن تأمين أَسِرَّة جديدة لاحتياجات المستقبل؛ لذا فقد وضعت خطةً طويلة المدى لإضافة تسعين سريرًا، لكنْ في وحدات منزلية محدودة السعة. ويتسع البيت الواحد لستة أشخاص ومشرف، وقد تبرّع محسنون لإقامة أول منزلين، إذ سُمِّي البيت الأول «دارة هند القطان»، إذ تبرع شقيقها بقيمة وكلفة الدار، كما أقيم البناء الثاني بأسماء: د.نزار النابلسي وبنك الأردن وأسرة المرحوم أمين شقير الذين شاركوا مجتمعين بتغطية الكلفة. وما تزال الجمعية مستمرة في طرح الفكرة على المحسنين لإنشاء الوحدات الأخرى كمشروع طويل المدى.

ويلاحظ على دخل الجمعيّة أنّه لا يغطى مصروفاتها؛ فهنالك عجزٌ سنويٌّ يقترب من (100) ألف دينار يُغطّى سنويًا بجهود جبارة، وقد أخذت الجمعيّة تعاني من صعوبة تغطية هذا العجز، إذا ما علمنا أنّ تعرفة الكلفة المعتمدة من وزارة التنمية الاجتماعية للمحوَّلين غير المقتدرين وهي (220)دينارًا، لا تكفي لتغطية كلفة الشخص الواحد، مما تضطر معه الجمعية لاستكمال العجز وهو في حدود (130)دينارًا شهريًا لكل فرد.

وتسعى الجمعية لإقامة مشروع استثماري على قطعة الأرض المحاذية للشارع العام التابعة للجمعية، بحيث تحقق إيرادات تكفل ديمومة عمل المؤسسة، كما أنّ مخطط المشروع ودراساته جاهزة في الجمعية وتقدر بحدود (448) ألف دينار، والمشروع عبارة عن مكاتب تجارية وقاعة حفلات.

ويتراوح عدد المقيمين في دار الضيافة للمسنين من الجنسين ما بين (120- 130) مقيمًا، بشكل دائم، وهم يستمرون في دار الضيافة للمسنين طول الحياة.

ويبلغ عدد موظفي الجمعية (62)موظفًا، وهم معيلون لأُسَرِهم، وتتولى الجمعية تغطية رواتبهم بالإضافة إلى الضمان الاجتماعي، كما يلاحظ ارتفاع كلفة رعاية كبار السن المقيمين في الجمعية، خاصّةً أمام تصاعد فاتورة الدواء بشكل مضطرد، وكذلك فوط الكبار الصحية مما يزيد الكلفة سنويًّا، وكذلك موضوع التدفئة والنقل لكثرة حركة السيارات وبُعد المكان، فضلًا عن حاجة كلٍّ من دار الضيافة ومنتدى الرواد الكبار إلى سيارتين صغيرتين تقريبًا لا تستطيع الجمعية بوضعها المالي الحالي تأمينهما، والهدف منهما هو تسهيل الحركة والمعاملات اليوميّة للجمعيّة.

منتدى الرّواد الكبار

منتدى الرّواد الكبار هو هيئة غير ربحية تُعنى بخدمة ورعاية كبار السن من الجنسين، وليست له صبغة سياسية أو دينية أو طائفية أو جهوية، وينظر باحترام لجميع شرائح المجتمع الأردني، وتسعى الجمعية لإقامة فروع للمنتدى الذي يقوم بدور كبير في عمان، وفي بقية المحافظات الأردنيّة لتعمَّ الفائدة والتثقيف والعناية المعنوية الثقافية بكبار السن.

وقد قام المنتدى بدور كبير في القطاعات الإعلاميّة والثقافيّة والفكريّة والصحيّة وفي الوعي العام، بندوات ومحاضرات أسبوعيّة حازت على متابعة الجمهور متنوع الاهتمامات، ويشهد هذا المنتدى إقبالًا على أنشطته، وقد تَكوَّن له أصدقاء مثقفون وأدباء وفنانون، في جوٍّ من التشاركيّة الأخويّة البنّاءة بين كبار السن ومحيطهم المجتمعي الكبير.

الركائز والمنطلقات

وتنطلق فلسفة التأسيس من احترام كبار السن من الجنسين، وتقدير خبراتهم التراكمية في مختلف مجالات الحياة، وتعزيز الجوانب الإيجابية في شخصياتهم، وكذلك تحقيق الأمن النفسي والاجتماعي لهم، وخلق تفاعلٍ إيجابيٍّ بينهم وبين مجتمعهم الكبير، واحترام

طاقاتهم الخلاقة، وتوفير الرعاية الشاملة لهم، واعتبار هذه الرعاية تشاركية ما بين الأُسْرة والدولة ومؤسسات المجتمع المدني.

الأهداف والطموح

ويهدف المنتدى إلى تأمين مقرٍّ مناسب يمارس فيه كبار السن من الجنسين أنشطة فكرية وأدبية وثقافية واجتماعية وترفيهية هادفة، وكذلك تقديم خدمات صحية وأنشطة رياضية معدّلة (رياضة كبار)، وبرامج لياقة تتناسب مع الوضع الصحي لهم، وتوفير جوٍّ اجتماعيٍّ عائلي، وتقديم وجبات صحية مناسبة لكبار السن وبأسعار مدعومة، وتنظيم احتفالات خاصة بمناسبة الأعياد الدينية والوطنية والقومية، وإقامة أنشطة مشتركة مع مؤسسات المجتمع المدني ذات العلاقة، وإصدار مجلة ثقافية فصلية تُعنى بكبار السن، وتنظيم لقاءات دورية مع رؤساء وأعضاء الأندية ومؤسسات المجتمع المدني ذات العلاقة بفئات كبار السن والمرأة والطفولة. كما يهدف المنتدى إلى إشراك عدد من كبار السن من الفئات الأقل حظًّا للاستفادة من خدمات المنتدى وأنشطته.

الآليات والوسائل

ولتحقيق أهدافه وغاياته يقوم المنتدى بتوفير وجبات صحية مناسبة مغذِّية وكافية لكبار السن، وتوفير خدمات صحية بإشراف أطباء مختصين وبرامج ومحاضرات ثقافية مختلفة، ونشاطات رياضية ولياقة جسمية وألعاب تسلية، ونشاطات ترويحيّة بحسب المناسبة، ورحلات سياحية داخلية وخارجية، وكذلك توفير الاشتراك في التأمين الصحي للأعضاء غير المشمولين بالتأمين الصحي العام، وذلك بالتنسيق مع الجهات ذات العلاقة.

لجان المنتدى

ويشتمل المنتدى على عدد من اللجان الفاعلة، وهي: اللجنة الثقافية والفكرية والأدبية، واللجنة الاجتماعية والفنية والرحلات، واللجنة الصحية واللياقة البدنية، ولجنة الدعم المالي والتبرعات، واللجنة الإعلامية.

الجمعيّة الأردنية للتأهيل النفسي

تأسست الجمعية عام 1989 بهدف تقديم خدمات التأهيل النفسي، وقد وضعت السيدة هيفاء البشير حجر الأساس ورئست هيئتها الإداريّة منذ ذلك الوقت إلى اليوم. ومن تحدّيات الجمعيّة أنّ تأسيسها في ذلك الوقت كان يُعَدُّ خروجًا على المألوف؛ ففي الوقت الذي كان ينظر للمريض النفسي فيه على أنَّه عالة على المجتمع، كانت السيدة هيفاء البشير تقف في وجه هذه المَوْجَة الطامية لتقول إنَّ هؤلاء الاشخاص هم أبناؤنا وإخواننا، وهم جزءٌ لا يتجزأ من تكوين الوطن، ولابد أن تكون لهم يدٌ وذراعٌ في تشكيل مستبقله وبناء إنجازاته، وهذا وحده يكفي ليكون مؤشرًا على بعد النظر والرؤية الواثقة لدى هذه السيدة، بالإضافة طبعًا إلى البعد الإنساني الذي لا يخفى على أحد.

وقد تشكّلت الجمعية، واستمر العمل بها لمدة 11 عامًا متواصلًا، وكان الإنجاز خلال تلك الأعوام ليس بالدرجة المأمولة، إلا أنَّ هذا لم يثنِ السيدة البشير عن السعي اللامتناهي للوصول لأهداف الجمعية؛ فلا بدَّ وأنّها مرَّتْ بلحظات من التعب والعناء وربما اليأس، لكن علمها وخبرتها في العمل التطوعي والإنساني إضافةً إلى إيمانها بمقولة: «إذا كانت الأحلام كبيرة فالحقائق لا تهم»، كلّ ذلك جعلها تستمر في سعيها الدؤوب حتى بلغت ما تسعى له.

مركز الصفصاف

في العام 2000 خَطَت السيدة هيفاء البشير الخطوة الأولى في تأسيس مركز الصفصاف في منطقة تركي بناعور، عندما تبرَّعت دائرة الحراج بتقديم الأراضي، وواصلت الجمعيّة سعيها حتى جمعت التبرعات اللازمة لبناء المركز بحلته التي هو عليها اليوم، حلة جعلت منه اليوم مقصدًا لمن يعانون اضطرابات نفسية مزمنة، لمن أسماهم المجتمع «المرضى»، وربما وصمهم بألقاب أخرى أساءت لهم ولذويهم، لكن الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي بقيادة السيدة هيفاء البشير آثرت تسميتهم «المستفيدين»، وهذا كان له أثرٌ طيبٌ في نفوسهم ونفوس أهاليهم، كما أنَّه ساهم بشكل أو بآخر في توجيه الدفة نحو اعتبار هذه الفئة جزءًا لا يتجزّأ من المجتمع، وبذلك أسهم في علاج وصمة العار المرتبطة بالمرض النفسي. وقد تشرفت الجمعية بأن قامت جلالة الملكة رانيا العبدالله حفظها الله بافتتاح مركز الصفصاف في العام 2003.

وتقع الجمعية في منطقة تركي ضمن لواء ناعور في العاصمة عمان، حيث تبعد عن مركز مدينة عمان حوالي 25 كم، والمنطقة التي تقع فيها الجمعية هي منطقة تجمع بين الطابع الريفي من حيث الطبيعة والأحراج، والحداثة من حيث طبيعة البناء والمرافق. ولأنَّ الهدف كان منذ البداية توفير الخدمة الشمولية، فالجمعيّة معنيّة بتوفير خدمات: التأهيل النفسي والاجتماعي من قبل مدربين مختصين ويخضعون لإشراف دائم من قبل خبراء، وكذلك التأهيل المهني الذي يتضمن التدريب ضمن مشاغل الخياطة والنجارة والنسيج والتريكو والخيزران والفسيفساء والموسيقى والكمبيوتر والفندقة، وخدمات الطعام والشراب والنظافة والخدمات المساندة الأخرى.

وينقسم المستفيدون من خدمات مركز الصفصاف إلى قسمين رئيسيين، هما: القسم الداخلي، غذ يكون المستفيدون المقيمون داخل المركز، وهؤلاء تقدم لهم خدمات الرعاية المسائية والطعام والشراب والمبيت بمواصفات عالية وجودة تضاهي المعايير

الوطنية والدولية. والقسم الخارجي، إذ يتلقى المستفيدون الخارجيون خدمات التأهيل نهارًا ويعودون لمنازلهم، وتوفّر الجمعية لهم خدمات المواصلات من منازلهم وإليها.

وقد تأسس مركز الجمعية ليشتمل على مجموعة من المواصفات هي: أن يقع على قطعة أرض مساحتها 12 دونمًا، إذ تحتوي الأرض على أشجار حرجية وأشجار الزيتون، بالإضافة لبرج الحمام وقن الدواجن، كما يزرع في الأرض أعشاب طبية متنوعة. كما أنّ مساحة البناء هي 1800 متر مربع، ويتكون من طابقين: الأول، مجموعة من المشاغل – الخياطة والنسيج، الخيزران، الفندقة، النجارة، الفسيفساء، الكمبيوتر، الموسيقى، التريكو- كما يضم قاعات جلوس ومنامات للمستفيدين المقيمين في المركز. أمّا الطابق الثاني، فيضم الجناح الإداري والمكاتب والمطبخ وقاعات الجلوس والاجتماعات. كما تبدو الشرفة قاعةً خارجية مجهزة بكافة المرافق، وتتسع لطاولات ومقاعد تكفي لأكثر من 400 شخص، ومرافق الشرفة هي الحمامات والمغاسل والفرن الخارجي، وتشكل إطلالة الشرفة إضافة فريدة من نوعها.

السيرة الذاتية للسيدة هيفاء البشير

مكان الولادة: نابلس.

تاريخ الولادة: 29/ 4/ 1931.

الحالة الاجتماعية: زوجة المرحوم الدكتور محمد عبد الرحمن البشير وزير الصحة سابقا، شهيد الواجب بمعية المغفور لها بإذن الله جلالة الملكة علياء الحسين في رحلة عمل بتاريخ 9/ 2/ 1977.

الدراسة والشهادات العلمية:

بكالوريوس تمريض/ كلية التمريض الجامعة الأردنية (1979-1983).

الدراسة الثانوية/ كلية دار المعلمات القدس (1946-1948).

شهادة الاجتياز للتعليم العالي الفلسطيني (1948).

دراسات سكانية/ الجامعة الأردنية (1986- 1988).

الدورات الرئيسية:

دورة الإدارة الاستراتيجية للمنظمات غير الحكومية/ فيرمونت (الولايات المتحدة) (1988).

المواقع والنشاطات:

- مؤسسة جمعية الأسرّة البيضاء ورئيستها منذ عام 1970.
- مؤسسة دار الضيافة للمسنين التابعة لجمعية الأسرّة البيضاء (1979) ورئيسة الدار.
- مؤسسة منتدى الرواد الكبار التابع أيضًا لجمعية الأسرّة البيضاء ورئيسته منذ عام 2010.

- عضو المجلس الصحي العالي (1977- 1980).
- عضو مجلس أمانة العاصمة (1980).
- من مؤسسات الاتحاد النسائي الأردني العام وأول رئيسة له (1981- 1990).
- نائب رئيسة الاتحاد النسائي العربي العام (1981– 1990).
- عضو المجلس الوطني الاستشاري (1982- 1984).
- عضو مجلس أمانة عمان الكبرى (1986- 1994).
- رئيسة جمعية التأهيل النفسي منذ عام 1994، ومؤسسة مركز الصفصاف التابعة لها منذ عام 2003 ورئيسته لتاريخ اليوم.
- عضو مكتب تنفيذي لاتحاد الجمعيات الخيرية لمحافظة البلقاء (1994- 1996).
- عضو مكتب تنفيذي لاتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين (1995- 1997).
- عضو لجنة التنسيق للمنظمات غير الحكومية المنبثقة عن اللجنة الوطنية لشؤون المرأة.
- عضو مجلس أمناء جامعة آل البيت (1998- 2001).
- رئيسة ائتلاف مؤسسات المجتمع المدني الصحي منذ عام 2011 ولتاريخه.

الإبداعات الأدبيّة:

أصدرت عشر قصص للأطفال باسم «الفرح والسعد» عام 1997، وحازت على جائزة الملكة نور لقصص الأطفال- محور القصة القصيرة، كما أصدرت المجموعة رقم (2) في هذه السلسلة: عشر قصص أطفال أخرى بعنوان «الفرح والسعد» عام 2004.

كتاب «محطات لرحلتي مع الحياة»، وهي سيرة ذاتيّة تغطّي سبعة عقود من مشاركتها الاجتماعية، وصدر الكتاب عام 2010.

الاهتمامات:

العمل التطوعي الخيري منذ العام 1970، في ميادين الصحة ودعم التمريض ورعاية المرضى النفسيين، ورعاية السادة كبار السن، والاهتمام بقضايا المرأة الأردنية بشكل خاص، والعربية بشكل عام.

المؤتمرات:

شاركت في الكثير من المؤتمرات المحلية والعربية والعالمية، ومنها:

مؤتمرات الاتحاد النسائي العربي العام المنعقدة ما بين 1981- 1991، في الكويت وتونس والخرطوم والأردن، ومؤتمرات الأمم المتحدة الدولية في برلين وكوبنهاجن ونيروبي وبكين 1975- 1980- 1985- 1995. كما كانت رئيسة الوفدين الرسمي والشعبي لمؤتمر نهاية عقد المرأة في نيروبي عام 1985.

الجوائز:

- وسام الاستقلال لجمعية الأسرّة البيضاء (1975).
- جائزة أديلبيد رستوري المركز الثقافي في روما تقديرًا للعمل الاجتماعي (1977).
- جائزة الملك حسين للتميّز العلمي/ الجامعة الأردنية/ كلية التمريض للحصول على المرتبة الأولى على دفعتها (1983).
- جائزة الملكة نور للحدائق في أمانة عمان الكبرى (1992).
- جائزة الملكة نور لرائدات العمل النسائي (1995).
- جائزة الملكة نور لمحور القصة القصيرة لأدب الأطفال (1997).
- جائزة الأسرة المثالية في العالم العربي للإنجاز الأسري (31/ 1/ 2006)، من الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم في دبي بمناسبة مهرجان دبي للتسوق.

- جائزة الملك الحسين للعطاء المميز من الدرجة الأولى من جلالة الملك عبدالله الثاني بن الحسين في عيد الاستقلال الأردني الحادي والستين بتاريخ 24/ 5/ 2007.
- شهادة ودرع للمشاركة في الخدمات الصحية التطوعية من منظمة الصحة العالمية بمناسبة مرور 25 عامًا على افتتاح مكتب الأردن بتاريخ 7/ 4/ 2010.

فهرس المحتويات

تقديم / سحر ملص 7

جذور العمل التطوعي 13

عطاءٌ بلا حدود / ميسون العرموطي 15

خمسون عامًا من العطاء / ماري نفاع 21

المرأة النموذج / أمل مدانات 25

هيفاء البشير.. نضال امرأة / إيلي النمري 37

هيفاء البشير الإنسانة 41

النموذج الاستثنائي والمثل الأعلى / غانية ملحيس 43

الطالبة الجامعية الاستثنائية / سالم ساري 59

«أم مازن» ما قصّرت! / عامر محمد البشير 65

هيفاء البشير.. عبق من جبل النار / سارة بركات 71

حضور عربي وأفكار مستنيرة / إبراهيم السواعير 73

مؤسسات من وحيها وبجهودها 83

هيفاء البشير.. سيدة المصباح الأردني / سحر ملص 85

هيفاء البشير.. مسكونٌ بها / أسعد خليفة 93

سيدة البدايات.. الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي / ليث عودة 99

سيدة بحجم وطن / فاديا سمارة 103

البشير واستراتيجة كبار السن / أروى النجداوي 107

الاتحاد النسائي والحركة النسائية 113
محطات مضيئة / أسمى خضر 115
هيفاء البشير.. امرأة من ياسمين / هيفاء النجّار 119
سيدة الوطن الجميلة / أمان السائح 123
سنديانة راسخة الجذور / جمان مجلي..... 129
البشير والحركة النسائية الأردنية / آمنة الزعبي..... 133

شهادات حول السيدة هيفاء البشير 139
على ضوء قنديلها نقرأ الوطن / جريس سماوي 141
هيفاء البشير: الإرادة والالتزام والإنجاز / عبد الله الخطيب 145
هيفاء البشير وقصص الأطفال / راشد عيسى 149
هيفاء البشير.. صناعة الحياة / بلال حسن التل 159
ليتَ النساءَ كَمثل هذي! / محمد السواعير 163
آفاق وطموحات / هيفاء البشير 165

إنجازات هيفاء البشير.. جمعيّة الأسِرّة البيضاء..... 175
السيرة الذاتية للسيدة هيفاء البشير..... 185